الشيخ منصور الرفاعي عبيد

مكانة المسجد ورسالته

مكتبة الدار العربية للكتاب



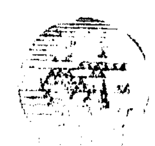
مكانة المسجد ورسالته

الناشر : **مكتبة الدار العربية للكتاب**
٢٤ شارع الدكتور حسن إبراهيم متفرع من
مكرم عبيد – ص . ب ٧٥٨٤
الحى الثامن – مدينة نصر – القاهرة.
تليفون وفاكس: ٢٧٤١٧٢١
رقم الإيداع: ١١٤١٩ /٩٦
الترقيم الدولى: 2 - 99 - 5366 - 977
تجهيزات فنية : **ار ـ تك**
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من ش السودان
تليفون : ٣١٤٣٦٣٢
طبع: **آمون**
العنوان: ٤ عطفة فيروز ـ متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: شوال ١٤١٧ هـ ـ مارس ١٩٩٧م

مكانة المسجد ورسالته

الشيخ
منصور الرفاعى عبيد
وكيل وزارة الأوقاف



الناشر
مكتبة الدار العربية للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

صدق الله العظيم

إهداء

إليك يا أبى

إلى روحك الطاهرة

أقدم هذا البحث

ضوءاً على بيت الله الذى تعلق به قلبك ...

وألفته نفسك...

وكان أغلى ما تتمناه أن أكون واحداً من رجاله!

ابنك

منصور

مقدمة

الحمد لله الذى جعل المساجد منارة للهدى، ومكانًا للدُّعَاةِ العالمين، ينشرون فيه العلم النافع لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب. سبحانه تكرم على روادها فأضفى عليهم من رحمته، وكساهم من محبته فقال فى الحديث القدسى: «إن بيوتى فى الأرض المساجد، وعمّارها زُوَّارى، وحق على المزُورِ أن يُكرِمَ زائره». والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، الذى كان أول عمل له حين دخل المدينة مهاجرًا أَنْ شيد المسجد؛ ليكون مقرًا لعبادة الله، ومدرسة يعلم فيها الرُّوَّاد الذين سيحملون مشاعل الهدايه؛ ليبددوا بها ظلام الجاهلية فى شتى بقاع الأرض.

أما بعد.. فقد تعددت أجهزة الإعلام فى عصرنا ما بين مسموعة ومرئية ومقروءة، حتى صار لها جمهور يعشقها ويألفها؛ وذلك لما يُبذل فى سبيل تطويرها من جهود مالية وفنية تضمن لها الاستمرار والاطراد، مع دقة التخطيط وجذب الأنظار، ومع هذا نجد أن المسجد مازال يحتل المكانة الأسمى فى نفوس المسلمين، ومنبره يمثل أقوى صوت يُوَجَّه للناس، تتضاءل بجانبه أصوات تلك الأجهزة بإمكاناتها. ولا عجب، فإن أكثر ما نسمعه أو نقرؤه أو نشاهده إنما هو من نتاج العقل البشرى الذى قد يخطئ وقد يصيب، أما رسالة المسجد فهى فى مجموعها رسالة الله لصالح الناس وسعادة البشرية، وشتان ما بين الرسالتين!

إنَّ الذى يدخل المسجد ويعتاد دخوله تزكو نفسه، وتقوى صلته بربه، فيشتهر بين الناس بالسلوك الحسن وَسِيمَا الوقار يتلألأ على جبينه، ونور الإيمان

يظهر على وجهه، ويدخل فيمن عناهم الرسول الكريم بقوله: «إذا رَأَيْتُم الرَّجُلَ يعتادُ المسجدَ فَاشهَدُوا له بالإيمان».

ومما لايختلف فيه اثنان أن المسجد كان ـ ولا يزال ـ جامعة إسلامية كبرى تؤدى رسالتها على مَرِّ العصور وكَرِّ الدهور، ينتسب إليها الصالحون، ويتخرج فيها الأوفياء العاملون، وتقدم للمجتمع العناصر الصالحة التى تعرف واجبها المنوط بها فتؤديه كاملاً؛ رغبة فى رضوان الله، وأملاً فى مثوبته. . . التعاون دأبهم، والإخلاص رائدهم، والصبر على تحمل المشاق فى سبيل الواجب والمروءة دَيْدَنُهُمْ وشيمتهم.

ولنعد معًا بالحديث إلى ما قبل البعثة؛ لنرى بيت الله الحرام أول بيت وُضِعَ للناس، يُقيم بناءَه الخليلُ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام؛ ليكون مثابة للناس وأَمْنًا، نراه يؤدى دوره التاريخى فى إيقاظ الشعور الإيمانى، وبعث الفطرة الكامنة فى الإنسان فى عصر الجاهلية حين طال العهد بالناس، ونَسِىَ الكثير منهم ما بُنى المسجد من أجله، فقلدوا الوثنيين، وعبدوا الأصنام، وأحاطوا الكعبة بالأوثان؛ لتقربهم إلى الله زُلْفَى «فى زعمهم»، حتى اسْوَدَّ الفِكرُ، والتاثت العقول، فلم تر الخالق من خلال مخلوقاته، ولم تُبصِر النور مما غشيها من فساد وظلام.

ومع هذا الظلام الدامس والفساد الذى رَانَ على القلوب نرى من خلاله جماعة صَفَتْ نفوسهم، وسَمَتْ أرواحهم، فنظروا إلى الأصنام نظرة استخفاف وسخرية، وتطلعوا إلى الخلاص منها، هؤلاء هم أصحاب العقول المفكرة، والأفئدة المستنيرة، وهُم الذين عُرِفُوا فى التاريخ باسم «الحُنَفاء»، ذلك لأنهم عايشوا المسجد الحرام فى مكة، ورأوا ما فيه قومهم من عبادة مالا ينفع ولا يضر، فى حين أن ما حولهم من ظواهر الطبيعة الباهرة ونظام الكون البديع أمر يلفت النظر، ويسترعى الانتباه، ويؤكد أن لهذا الكون خالقًا عظيمًا منفردًا

يجب أن تُوَجّه العبادة له، يؤكد هذا ما نراه فى آثارهم التى خلفوها وراءهم، ورواها لنا التاريخ.

فزيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب ـ وهو واحد منهم ـ أنكر على قومه عبادة الأصنام، وراح يبحث عن دين إبراهيم الذى بنى البيت، فطاف فى بلاد العرب حتى هداه اللّه إليه، وكان يقول: «اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك، ولكنى لا أعلمه» ثم يسجد على راحلته، ومن أبرز أقواله وهو مستند إلى الكعبة: يا معشر قريش، والذى نفسى بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى!

وقُسُّ بن ساعِدَة الإيادى خالف عقائد الجاهلية، وأيقن بالبعث والحساب، وكان يعظ الناس ويذكرهم بالموت ومابعده، ويدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد، فيقول: مَنْ عاشَ مَاتَ، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، إن فى السماء لخبرًا، وإن فى الأرض لعبرًا، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تُرِكُوا فناموا؟ يقسم قس قسمًا لا إِثْمَ فيه، إن للّه دينًا هو أَرْضَى لكم من دينكم الذى أنتم عليه.

والمأمون الحارثى كذلك ضرب بسهم وافر فى النظر فى الكون؛ بحثًا عن الخالق القادر، وهو يقول: أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، وقمر تطلعه النحور، وتمحقه أدبار الشهور، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على البارئ المصوِّر، المدبِّر المقدر.

هؤلاء وغيرهم تربوا فى ربوع مكة، وَشبُّوا بين أحضان المسجد الحرام قبل البعثة، فكان المسجد من أقوى الأسباب فى توجيه هؤلاء وأمثالهم، لأن يسألوا أنفسهم: لماذا بنى هذا المسجد؟!

وإذا كان هذا هو شأن المسجد فى الجاهلية قبل أن يرتبط بتاريخ الإسلام، وقبل أن يصبح المدرسة الأولى فى المجتمع الجديد الذى وضع أسسه محمد بن عبد اللّه على تقوى من اللّه ورضوان خير، فلا غرو بعد ذلك أن يكون

للمسجد فى الإسلام معنىً روحيًا يكشف للنفس المؤمنة سر العبادة ومعنى العبودية للّه رب العالمين، فليس بناءً شامخًا كغيره من البنايات الخالية من معانى الإجلال والتقديس، وإنما هو - أى المسجد - سفينة نجاة لهذا العالم المضطرب الذى يموج بالانفعالات النفسية، حائرًا متخبطًا، تائهًا فى بيداء الحياة، غارقًا فى أوهامها؛ إذ أن داخله يلقى عن عاتقه كل هذه الأثقال على بابه وينفضها عن نفسه، ويتجه بقلبه لصاحب هذا البيت تائبًا مستسلمًا له، طالبًا منه الصفح والغفران، فيخفت ضوء الدنيا فى قلبه، وتنطفئ نار الشهوات فى نفسه، فيجتمع مع غيره على سلامة صدر، وبراءة قلب، وروحانية نفس، ثم يستوون استواءً واحدًا ويقفون موقفًا واحدًا فى خشوع واحد، ثم يخرُّونَ للأذقان سُجَّدًا للّه، مستشعرين معنى المساواة، فلا غرور ولا استعلاء ولا خُيَلاء، الكل يستجيب لكلمة الحق، ويستمع لصوت الخير، مُتَجاوِبًا مع دعوة الإصلاح والفلاح، وقد خرجوا من دنيا ذواتهم العنصرية إلى الديمقراطية الإسلامية الحقة، فلا يفكر أحد أن ذاته أسمى من ذات أحد، وكيف يكون ذلك وما زال صوت النبى محمد يرن فى آذانهم أنه «لا فَضلَ لعربىً على أعجمىً، ولا لأسْوَدَ على أبْيَضَ إلا بالتقوى والعمل الصالح»؟

وبهذه المكانة السامية للمسجد فى نفوس المسلمين فاق أجهزة الإعلام وتغلب عليها، وأصبح صوته أعلى من أصواتها، وتأثيره فى حياة الناس أقوى، وصار جديرًا بأن يكون مدرسة لتخريج عظماء الرجال، وجامعة ينصهر فيها رُوَّادُهم.

والذى بين يديك جهد متواضع يلقى الضوء على هذا البيت الخالد الذى أدى ويؤدى دوره فى بناء الإنسان المسلم الذى نحن فى حاجة ملحة إليه فى عصرنا الحاضر، وعلى الأئمة الدعاة الذين يحملون مشاعل الهدى لتوصيل رسالتهم السامية إلى أبناء الأمة فى سبيل رفعتها ونهضتها، ومستقبل أمتنا المشرق بالرخاء بإذن اللّه. ان يجعلوا المسجد قبلتهم ولهوى أفئدتهم.

وأرجو من اللّه سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يتقبله منا، وهو وحده أعلم بالقصد.

وعفواً أخى القارئ، إن وجدت خيراً فهو من توفيق اللّه، وإن صادفك خطأ فهو قصور من العبد الضعيف، فَقَوِّ ضَعْفِى برأيك، والدين النصيحة للّه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم - كما قال سيد البشر ﷺ - ورحم اللّه امْرأً أهدى إلىَّ عيوبى - كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[1].

منصور الرفاعى عبيد

(١) سورة إبراهيم الآيتان ٤٠ ، ٤١.

الفصل الأول

لمن المسجد؟

هو لله سبحانه وتعالى، وهو أفضل بقاع الأرض، ومكان تَنَزُّلِ الرَّحَمات، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾(١).

وأما تسمية المسجد باسم فلان أو فلان، فمن باب التعريف التوضيحى وللتمييز بين المساجد؛ نظرًا لكثرتها وتعددها فى البلد الواحد.

فضل بناء المساجد:

قال الله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾(٢).

والرفع إما حقيقى، وهو العلو بالبناء، وإما مجازى، أى: إظهار شرفه، وتعظيم مكانه، ودعاء الناس إليه لأداء الصلاة فى أوقاتها الخمس جماعة مع المسلمين؛ ليزداد عددهم، ويكثر جمعهم، ويتم تآلفهم، وتتوثق عُرًا المحبة فى نفوسهم. ولما كانت المساجد بيوت الله فهى تشع نورًا لأهل السماء، كما أن النجوم تشع نورًا لأهل الأرض. روى ابن حبان عن أبى ذَر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ بَنَى لله مسجدًا قَدْرَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى الله له بيتًا

(١) سورة الجن ـ الآية ١٨.

(٢) سورة النور ـ الآية ٣٦.

في الجنة»[1]. وروى ابن خزيمة عن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ حَفَرَ بئرَ ماء لم يشرب منها كبدٌ حَرَّى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجَره الله يوم القيامة. ومنْ بَنَى لله مسجدا كَمَفْحَصِ قطاة أو أَصْغَر، بنى الله له بيتًا فى الجنة»... وروى ابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مما يَلْحَقُ المؤمنَ منْ عَمَله وحَسَنَاته بَعْدَ مَوْته علْمًا عَلَّمُه ونَشَرَهُ، أو وَلَدًا صَالِحًا تَرَكَه أو مُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السَّبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صَدَقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

إن المكان الذى يخصص للصلاة فى الطرق العامة، وكذا المصليات التى تحدد أماكنها فى الحقول، وعلى شواطئ الأنهار بمعرفة إخواننا الزُّرَّاع، وكذلك ما يفرشه العمال فى المصانع بجوار أماكن عملهم، كل هذا وأمثاله لعامله أجرٌ، وله ثواب على قدر نيته، ومن هنا نهيب بإخواننا فى كل مكان أن يكون عندهم ما يفرش لتُقَام عليه الصلاة عند حلول وقتها، إنْ كان المسجد بعيدًا والعمل قائمًا، حتى لا تضيع ويدخل وقت الصلاة الأخرى، ويكون الإنسان من السَّاهين عنها، المضيعين وقتها، المهملين فى أدائها، وبذا يدخل تحت قول الحق: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[2]. وتأمل قوله سبحانه: عن، ولم يقل: فى.

وروى الترمذى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا صَغيرًا أو كَبيرًا بَنَى اللهُ له بَيْتًا فى الجنة».

---

(١) مفحص القطاة: موضع تبيض فيه القطاة، وهى طائر. وهذا محمول على المبالغة؛ لأن المفحص لايكفى للصلاة، أو محمول على أن جماعة يشتركون فى بناء مسجد، وكل واحد يشترك بقدرٍ قليل فله على ذلك ثواب عظيم وأجر كبير ﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾.

(٢) سورة الماعون - الآيتان: ٤، ٥.

وروى أحمد عن بشير بن حبان قال: «جَاءَ وَاثِلَةُ بن الأَسْقَع - ونَحْنُ نَبْنى مسجدًا - فَوَقَفَ علينا فَسَلَّمَ، ثُمَّ قال. سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُصَلِّى فِيهِ بَنَى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ فى الجَنَّةِ أَفْضَلَ مِنْهُ».

المشى إلى المساجد:

المساجد بيوت المتقين، فمن أكثر من التردد عليها فهو مشهود له بالإيمان، وضمن الله له الروح والرحمة والجواز على الصراط المستقيم. ومن غدا إلى المسجد أو راح إلى المسجد أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح؛ ولذا يُستحب لزوم المساجد والجلوس فيها إذا لم يكن وراء الإنسان عمل، كأن يكون قد انتهى من عمله، وأدَّى واجبَ أهله، وأصبح غيرَ مشغول بشىء، ولا مرتبطًا بواجب منوط به ومكلف أن يقوم بأدائه. يقول أبو الدرداء: ما مِنْ رَجُلٍ يغدو إلى المسجد لخير يفعله، أو علْمٍ يتعلمه، إلاَّ كتب له أجر مجاهد، لا ينقلب إلا غانمًا. ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «إنَّ الملائكة لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لطالبِ العلمِ رضًا بما يصنع»: وفى حديث أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن النبى ﷺ قال: «إنْ للمسَاجد أوْتَادًا، الملائكةُ جلساؤهم، إنْ غَابُوا يَفْتَقِدُونَهُمْ، وإنْ مَرِضُوا عَادُوهُمْ، وإنْ كانوا فى حَاجَةٍ أعَانُوهَمْ» ثُمَّ قال: لجليس المسجد على ثلاث خصال: أخ مستفاد، أو كلمة محكمة، أورحمة منتظرة. ويقول أحد العلماء: المسجد حصن حصين من الشيطان الرجيم؛ ذلك لأن الشيطان عندما قال لله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

فعباد الرحمن ليس للشيطان عليهم سبيل. إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين يهربون من المساجد ولا يركعون ركعة لله، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2].

والجليس فى المسجد يذكر الله، ومَنْ ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَهُ اللهُ. قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3].

(١) سورة ص - الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٢) سورة مريم - من الآية ٥٩.
(٣) سورة البقرة - من الآية ١٥٢.

وقال أحد الصالحين: واللّه إنِّى لأَعْلَمُ متى يذكرنى ربى: إذا ذكرتُه ذكَرَنى.

روى ابن ماجه عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه - أن رسول اللّه ﷺ قال: «المشَّاءون إلى المساجد فى الظُّلَمِ أولئك الخوَّاضُونَ فى رحمة اللّه تعالى». وروى الطبرانى عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه -: «إنَّ الله لَيُضِيءُ للَّذينَ يتخلَّلُونَ إلى المساجد فى الظُّلَمِ بنورٍ ساطِعٍ يوم القيامة». وروى ابن خزيمة عن أبى هريرة - رضى اللّه تعالى عنه - أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا يتوضَّأ أحدُكم فَيُحْسِن وضوءه فَيُسْبغه، ثم يأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، إلاَّ تبشَّشَ اللهُ إليه كَما يتبشَّشُ أهْلُ الغَائبِ بِطَلْعَتِه» أى: يفرحون بطلعته، ويتهللون فى وجهه، ويظهر عليهم الفرح وعليه السرور.

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «إذَا رَأَيْتُم الرَّجُلَ يَعْتَادُ المساجدَ فَاشْهَدُوا له بالإيمان». قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[1].

وفى رواية الطبرانى: «من ألفَ المسجدَ أَلِفَهُ الله» وعن أبى الدرداء فيما رواه الطبرانى، أن رسول الله ﷺ يقول: «المسجدُ بيتُ كُلِّ تَقِىّ» وتكفل اللّه لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان اللّه والجنة. والسعى إلى المساجد والجلوس فيها للطاعة من أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة، وتدعو له الملائكة بالمغفرة والرحمة، ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2].

طهارة المسجد:

أرشدنا الوحى الإلـهى والتوجيه الربانى إلى طهارة المسجد ونظافته؛ حتى يكون المسجد على غاية من الكمال والجمال، وليشعر داخله بالراحة النفسية، والاطمئنان فى السجود، والمكث بعد الصلاة. ونستلهم هذا من قول الحق

(١) سورة التوبة - من الآية ١٨.

(٢) سورة المطففين - من الآية ٢٦.

ـ سبحانه ـ لسيدنا إبراهيم خليل الله، وبانى البيت الحرام: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1].

وتَرْك المساجد بلا نظافة وإهمالها يكون سببًا فى هجرها وعدم المكث فيها، والهَرَب من أداء الصلاة بداخلها، ومن تسبب فى ذلك يدخل فى مفهوم تلك الآية: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

ولقد كان من عادة الناس الطيبين أنهم يهبون أولادهم لخدمة المسجد وصيانته ونظافته؛ لما فى ذلك من الأجر العظيم، والثواب الكثير، ونأخذ هذا من قول الحق ـ سبحانه ـ على لسان امرأة عمران، التى قالت عندما أَحَسَّتْ بالحمل بين أحشائها، وبالجنين يتحرك بين ضلوعها: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3].

والمحرَّر هو الولد الذكر؛ لأنه هو الذى يصلح لخدمة المسجد التى تحتاج إلى مشقة وجهد، ولا يصلح هذا للنساء فى مسجد الرجال؛ ولذلك لما وضعت المولود وجاءت أنثى اعتذرت إلى ربها، وطلبت منه ـ سبحانه ـ أن يُنْبتَهَا نباتًا طَيِّبًا، وأن يبارك فيها، ويجعلها من أهل الفلاح والسعادة: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[4].

ولذا رَوَى أحمد عن سَمُرَة بن جُنْدب ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أن نَتَّخذ المساجدَ فى دِيَارِنَا، وأَمَرَنَا أن نُنَظِّفَهَا». ورَوَى ابن

(١) سورة الحج ـ من الآية ٢٦.
(٢) سورة البقرة ـ الآية ١١٤.
(٣) سورة آل عمران ـ الاية ٣٥.
(٤) سورة آل عمران ـ الآية ٣٦.

ماجه عن أبى سعيد الخدرى - رضى اللّه عنه - قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ أَخْرَجَ أذًى مِنَ الْمَسْجِدِ بَنَى اللهُ له بَيْتًا فى الجنة».

وروى الطبرانى عن أبى قرصافة، أنه سمع النبى ﷺ يقول: «ابْنُوا المساجدَ وأَخْرِجُوا القمامَةَ منها، فَمَنْ بَنَى لله مَسْجداً بَنَى اللهُ له بَيْتًا فى الجنة. فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله، وهذِهِ المساجد الَتى تُبْنَى فى الطريق؟ قَالَ: نَعَمْ. وإِخْرَاجُ القمامَةِ منها مُهورُ الحورِ العِين.

وروى ابن ماجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «خِصَالٌ لا ينْبَغِينَ فى المسْجِد: لا يُتّخَذُ طَرِيقًا - ولا يُشْهَرُ فيه سلاَحٌ، ولا ينبضُ فيه بقَوْس ولا يُنْثَرُ فيهَ نَبْلٌ. ولا يمر فيه بِلَحْمٍ نِيء، ولا يُضْرَبُ فيه حَدٌّ، ولا يُقْتَصُّ فيه مِنْ أَحَد، ولا يُتّخَذُ سُوقٌ به».

ولقد أراد رسول اللّه ﷺ أن يُصانَ المسجد من تلك الأمور التى من شأنها أن تغرس الأحقاد فى النفوس، وتكون سببًا فى بُعْدِ الملائكة بسبب الرائحة الكريهة؛ لأن هذا مما ينفر الناس؛ ولذلك يجب صيانة المسجد عن الروائح الكريهة. ولا يجوز البزق فى المسجد؛ لأن ذلك خطيئة؛ لأنه قد يصاب شخص بالتلوث - وكذلك البول - لأنه جاء فى الحديث أن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القَذَر، إنما هى لذكر الله وقراءة القرآن. ويحرم إدخال النجاسة إلى المسجد، وأما مَنْ على بدنه نجاسة، أو به جرح ويخشى تلوث المسجد من ذلك، فيحرم عليه دخول المسجد، وكذلك التبول والتبرز بجوار الجدار؛ لأن الهواء يدخل للمسجد محملاً برائحة يتأذى منها الرُّوَّاد.

وقد قال الشيخ منصور بن إدريس: «يحرم الجماع فيه، ويُكْرَه فوقه، والتمسح بحائطه، والبول عليه. وقال أحمد: أكره لمن بال أن يمسح ذكره بجدار المسجد، ويحرم بوله فيه ولو فى إناء؛ لأن المسجد لم يُبْنَ لهذا، فوجب صَوْنُه عنه. كما يكره تحريمًا إلقاء القمل ودفنه حيًا بالمسجد، وكذلك البراغيث والبق، وما شاكل ذلك، مما يكون سببًا فى إيذاء الغير، أو تنفير الناس. ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا وَجَدَ أحَدُكم القَمْلَة فى ثَوْبِهِ فَلْيصرُّهَا ولا

يُلْقِهَا فى المسْجد» أخرجه أحمد. ورواية البيهقى: إذا وجد أحدكم القملة وهو يصلى فلاَ يقتلها ولكنْ يَصُرُّهَا حتى يصلى. فإذا خرج الإنسان خارج المسجد طرحَها.

ويجدر بكل مسلم مؤمن يعلم أنه سيلقى الله ويحاسبه على ما فعله فى حياته أن يعمل فى صيانة المسجد وعدم وضع الأذى بجواره، ونلفت النظر إلى تلك الأكوام من التراب أو القمامة التى توضع أمام المسجد، وتتطاير مع الهواء وتدخل إلى المسجد وحَرَمه؛ فإن هذا يجلب السخط على أهل الحى بأجمعه وذلك فعل بعض من لاخَلاقَ لهم واتخاذهم جدران المسجد ستارًا لقضاء أمور كريهة، أو فعل أشياء لا ترضى صاحب الذوق السليم، فإننا نهيب بكل مؤمن أن يكون لسان صدق فى الدعوة إلى الله، والنهى عن كل ما يفسد جمال المسجد، حتى يظهر مِنْ داخله ومِنْ أمامه بصورة مشرقة.

هذا، ويلاحظ أن سير المواصلات ساعة صلاة الجمعة والإمام يخطب وهى تستعمل آلة التنبيه بصورة تشوش على المصلين وتقطع على الداعية أفكاره - إنْ كان مرتجلاً - يلاحظ أن ذلك من الأمور المحرمة المنهى عنها، ففى الحديث الذى رواه أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «منْ تكَلّمَ يومَ الجمعة والإمَامُ يَخْطُبُ فهو كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا. والذى يقولُ له: أَنْصِتْ لَيْسَ له جُمعة».

وفى حديث أبى هريرة - رضى الله - عنه الذى رواه ابن ماجه، أن النبى ﷺ قال: «إذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يوم الجمعة: أنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ»؛ لهذا نهيب بكل مسئول يملك أن يقدم خدمة لدينه أن يبادر بسن قوانين توقف هذا التيار الذى يفسد رَوْعة هذا اليوم العظيم، خاصة فى تلك الساعة التى لا يصادفها عبد مؤمن يدعو الله إلا استجاب له.

ويُستحب تبخير المسجد بالبخور، وفرشه، وتعليق القناديل والمصابيح به، وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ولما رأى على بن أبى طالب - كَرَّمَ الله وجهه - اجتماع الناس فى المسجد للصلاة والقناديل تزهر وكتاب الله يُتْلَى قال: «نَوَّرْتَ مَساجِدَنَا نَوَّرَ قَبْرَكَ يَابْنَ الخطَّاب».

إن الإسلام يتسم بالنظافة، وهى شعيرة من شعائره، ولما كان المسجد هو

مكان اجتماع المسلمين فعليهم أن يعملوا على تهيئته، ويتأكَّدُ كنس المسجد وتنظيفه، كل يوم ولقد كان رسول الله ﷺ يتبع غبار المسجد بجريدة، ولما كان هو القدوة والمعلم، فقد أخبرنا هذا الصادق الأمين الذى لاينطق عن الهوى، صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه الترمذى عن أنس قال ـ قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِى، حَتَّى القَذَاة يُخْرِجُهَا الرجل من المسجد». أى: منْ أخرجَ الأشياء التى يتأذى منها المصلونَ له أجر عظيم، ومن أدخل إلى المسجد ما يتأذى منه المصلون عليه وِزْرٌ، وله عذاب عظيم.

كما أن النبى ﷺ كرَّمَ امرأة تكريمًا عظيمًا؛ لأنها كانت تخدم المسجد، وتقوم على نظافته وإخراج التراب منه، ففى الحديث الذى رواه أبو الشيخ الأصبهانى، عن عبيد الله بن مرزوق، قال: «كانت امرأة بالمدينة تَقُمُّ المَسْجِدَ ـ أى تكنسه ـ فماتت، فلم يَعْلَمْ بها النبى ﷺ، فَمرَّ عَلَى قَبْرِهَا فَقَالَ: ما هَذَا القَبْرُ؟ فقالوا: قَبْرُ أُمِّ محْجَن. قَالَ: التى كَانَتْ تَقُمُّ المسْجِدَ؟ قالوا: نَعَمْ، فَصَفَّ النَّاسَ فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثم قال ـ مخاطبًا إيَّاها: أَىُّ العَمَلِ وَجَدْت أَفْضَل؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَتَسْمَعُ؟ قَالَ: ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهَا. فَذَكَر أنها أَجَابَتْهُ: قَمُّ المسجد ـ أى ـ كَنْسُ المسْجد ـ والعَمَلُ على نَظَافَتِه وَطَهارَتِه». وأى تكريم أفضل من هذا؟ رسول الله ﷺ يصف الناس على قبرها ويصلى عليها، ويترحم، ويدعو لها بالخير والرحمة، إن هذا لهو الفضل والتكريم، ولِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ. ثم إنها امرأة من عامة الناس لا يُؤْبَهُ لَهَا، وهى ماتت ولم يَعْلَمْ بموتها الحبيب المصطفى، فلما عَرَفَ كَرَّمَ خَدَمَ المساجِدِ فى شَخْصِيَّتِهَا. فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبصار.

النساء. والصبيان. والمساجد

الصبى هو رجل المستقبل، وأمل الأمة فى غدها المشرق، وهو بسمة الرضا على شفاه الناس، إنْ كان متعلمًا مهذبًا متدينًا متخلقًا بالخلق الكريم ونُشِّئَ على العقيدة الصحيحة والإيمان القوى ـ سَعِدَتْ به الأُمَّة، وتبوَّأ المجتمعُ به مكان التقدم والازدهار تحت شمس الله وعلى أرضه.

والمرأة نصف المجتمع، ولها مكان الريادة فى تربية الأولاد، يرضعون منها لبان العلم والمعرفة إنْ كانت عالمة عاقلة، عارفة بأحوال المجتمع. وهى التى تصنع الأبطال، وتقدم للأمة القادة فى كل مجال، ومن هنا لم يهمل الإسلام رعايتها، ولم يغلق المسجد فى وجهها، وإنما أفسح لها مكانًا فى المسجد باعتباره جامعة علمية يُؤَهِّلُ مَنْ يتردد عليه بالمعرفة الصحيحة والفهم العميق، والثبات على المبدأ، والاعتماد على الله، مع التربية الصحيحة السليمة.

جاء فى صحيح البخارى ما نصه: حَدَّثَنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر قال: «كَانَت أمْرَأَةٌ لعُمَرَ تشهدُ صلاةَ الصبح والعشاء فى الجماعة فى المسجد، فقيل لها: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلكَ ويَغَارُ؟ قَالَتْ: «وما يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِى؟» قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ: «لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَساجِدَ الله».

حدثنا إبراهيم بن موسى قال أخبرنا الوليد قال: حدثنا الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير، عن عبد الله بن أبى قتادة، عن أبيه قتادة، عن النبى ﷺ قال: «إنى لأَقُومُ فى الصَّلاة أُريد أن أُطَوِّلَ فيها فأَسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِىِّ فأتجوزُ فى صَلاتى مما أعلم من شدة وَجْدِ أُمِّه من بكائه».

وفى رواية أخرى عن أنس بن مالك - رضى الله تعالى عنه - يقول: ما صليتُ وراءَ إمام قَطُّ أخفَّ صلاة وَلاَ أَتَمَّ من النبى ﷺ، وإن كان لَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصبى فَيُخَفِّفُ مخَافَةَ أن تُفْتَنَ أُمُّه.

وإذا كان هذا من رحمة النبى ﷺ وعطفه، فهو تعليم للأئمَّة وإرشاد وتوجيه عملى، وفيه دليل على أن المرأة كانت تذهب ومعها صبيها الصغير، لكى تُعَوِّدُه وتُدَرِّبَهُ من الصغر على التردد على هذا المكان الذى رُفِعَ باسم الله، ووقف الجميع تحت شعار الإِخُوَّة والمساواة والتآلف. وقد ورد حديث فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ، قال: «إذَا استَأْذَنَكُم نِسَاؤُكُم بالليل إلى المسجد فَأْذَنُوا لَهُنَّ».

وفى رواية أخرى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ: «ائْذَنُوا لِلنسَاءِ بِاللَّيْلِ إلى المسَاجِدِ».

إن رسالة السماء ووحى اللّه ـ سبحانه ـ لم يفرق فى الأمور الدينية بين الذكر والأنثى كما فعلت بعض القوانين الوضعية فى البلاد التى تَدَّعِى أن لها قدمَ السبق فى الحضارة، ثم حالت بين المرأة والصبى وبين دور العبادة، لكن الإسلام فتح أبواب أماكن عبادته لمن صفَا قلبه من الشرك، وصَحَّتْ عقيدته أن يتردد على المساجد يتزود منها الخير، ويلتقى مع المسلمين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه، وهم قوم يعيشون فى الدنيا لتسعد بهم؛ لأنهم أصحاب منهاج عظيم وخُلق كريم.

أثناء عملى بالمساجد دَخَلَ علىَّ أحَدُ الناس وهو يرفع صوته ويقول: لابد أن نعمل على منع الصبيان من التردد على المساجد ـ قلت له: هَوِّنْ على نفسك واجلسْ حَدِّثْنى فقال: لقد سمعتُ حديثًا: «جَنِّبُوا مَسَاجِدكُم صِبْيَانكُم». قلت له: هذا حق لا نختلف فيه، لكن يجب أن تعلم أن سيد الخلق ونبى الرحمة كان يصلى وأَمَيْمَة بنت زينب ابنته على عاتقه. وأحيانًا كان يطيل السجود بالناس فيسأله البعض عن السبب فى الإطالة فيقول: إنَّ ابْنِى ارْتَحَلَنِى فكَرِهْتُ أنْ أُعَجِّلَهُ، وأما الحديث الذى ذكرته فهو أن تجنب المسجد من الصبيان الذين يخشى منهم أن يُحْدِثُوا فى المسجد. ويُلوِّثُوهُ، أو يتسببوا فى الشوشرة على المصلين.

أما إذا كان الولد يتردد على المسجد لحفظ القرآن أو الصلاة أو التعلم والتفقه فى أمور الدين فهذا من الأمور المرغوب فيها؛ لأن تردد الولد على المسجد منذ نعومة أظفاره يجعله ينمو نموًا لامشاكل فى حياته، ولا تعقيد أمامه، ولا اضطراب فى نفسه، ويُثبت قلبه على الإيمان؛ لأن مرحلة المراهقة من أخطر المراحل فى حياته، فهو عند بلوغه يكون قد حَصَّنَ فؤاده، وثبت يقينه، فلا قلق ولا اختلال، ولا أوهام سيئة؛ لأنه فى المسجد يجد المناخ الطيب والجو الدينى والمجتمع الطاهر، فتتأصل فى نفسه أمور العبادة وآداب التعامل وشدة المراقبة للّه، فيكون عضوًا سليمًا فى مجتمعه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويشب فى عبادة اللهّ، ويَصْدُقُ فيه الحديث بأنه من السبعة الذين يُظِلُّهُم اللهّ فى ظِله يوم القيامة، ومنهم شابٌّ نشأ على عبادة اللّه.

إن الأمة التى تشكو من جنوح الشباب فيها وعدم التزامهم بالقيم الخلقية، وانتمائهم إلى تشكيلات سرية، ثم اندفاعهم إلى أعمال لا تتفق وحدود الشريعة وتعاليم الإسلام، مردُّ ذلك كله أن الأولاد لم يجدوا اليد الحانية من هدى الإسلام، وبُعدهم عن المدرسة العظيمة، فنَشئُوا فى فراغ دينى، وامتلأ قلبهم بالأوهام، والعقل إذا لم يُغذَّ بالمعرفة الصحيحة والعلم النافع مُلِئ بالباطل الذى يروج وينتشر فى غياب الحق ورجاله، فَلْنُوَجِّهْ أولادنا من الصغر إلى المسجد، ولننشئ أطفالنا على التعلق بالمسجد، وأداء العبادة بين جدرانه، وليلتحموا بالرواد الأتقياء؛ لأنه جاء فى الحديث: «مثَلُ الجَليسِ الصَّالِح والجليس السُّوءِ كَصَاحِبِ المِسْكِ ونافِخِ الْكِير...». فانظر - رعاك اللّه - إلى ولدك وماذا تحب أن يكون فى مجتمعه، وأمامك تلك النصيحة القرآنية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(1). فادفع بولدك إلى المسجد ليتعلم ويتأدب.

يقول الرسول ﷺ: «عَلِّمُوا أَوْلادكُمُ الصَّلاَةَ لِسَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عليها لِعَشْرٍ». ألا فلنتجه إلى المسجد نُرغِّب فيه أولادنا، ونعلمهم التردد عليه، حتى نضمن لهم حياة البهجة والسعادة والاستقرار.

والمرأة إذا كانت صلاتها فى بيتها أفضل فإنها لا يمنعها أحد من التردد على المسجد إذا خرجت بملابس ساترة للجسد ودون أن تمس مِنَ الطِّيب الذى يلوى الأعناق إليها، وتذهب وتعود فى سكون وخشوع، والرسول ﷺ يقول فيما رواه النسائى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرهَا. وخيْرُ صُفوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّها أوَّلها».

وفى حديث أبى داود عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ رأى فى أصحابه تأخرًا، فقال لهم: «تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِى، وَلْيَأْتَمّ بِكُم منْ بَعدكم، لا يَزالُ قَوْمٌ يتأَخَّرُونَ حتى يُؤَخِّرَهُمُ الله».

وفى هذا تنبيه وتوجيه وإرشاد للرجال أن يتقدموا فى أول الصفوف، ثم

(1) سورة طه - من الآية ١٣٢.

يكون الصبيان من ورائهم، ثم النساء، وخير صف النساء الأخير. . ثم تسرع المرأة إلى بيتها بعد الصلاة مباشرة، ويتأخر الرجال قليلا فى المسجد حتى يفسحوا الطريق للنساء. ولا يكون هناك اختلاط بين الجنسين.

وإذا كانت المرأة المتعلمة فيها أمل فى إيجاد أسرة سعيدة وبيت هانئ هادئ ترفرف عليه أعلام السعادة، وينتشر فى رحابه الأمن، ويشعر أفراده بالاستقرار، فإن المرأة المتدينة هى التى تُسْعِدُ الأُسْرَةَ والمجتمع؛ لأنها تعرف حقوق زوجها وواجباته، وتحرص على رعاية أولادها، وعدم إيذاء جيرانها، وصيانة لسانها عن التعرض لعيوب الآخرين بما تتعلمه من آداب الإسلام.

إن الدين هو صِمام الأمن فى حياة البشر لذلك يجدر بنا أن نعلمه لأولادنا وبناتنا، حتى يكونَ المجتمعُ فاضلاً متماسكًا. كما وصَفَ الشاعر رُوَّاد المسجد بقوله:

الله يَعْرِفُهُم رُوَّادَ مَسْجِدِهِ   والنَّاسُ تعْرِفُهُمْ للخيْر أَعْوَانَا
دُسْتُورُهَم لا فَرَنْسَا قَنَّنَتْهُ ولا   رُوما ولَكِنْ قَدِ اخْتَارُوه قُرْآنَا

* * *

الفصل الثانى

تعريف المسجد:

عرف السابقون من أَئِمَّتِنَا الفضلاء المسجد فقالوا: المسجد ـ لغة ـ بكسر الجيم: اسم لمكان السجود. . وبفتح الجيم: الجبهَةُ التى يكون السُّجُود عليها أى: جبهة الإنسان. ويقال: مِسْجَدَة ـ بكسر الميم وفتح الجيم، وهى: السَّجَّادَةُ أو الحصيرة الصغيرة التى يصلى عليها الإنسان.

وأما شرعًا فهو: الموضع الذى يسجد فيه، وكل موضع يتعبد فيه الإنسان فهو مسجد، وعلى هذا فالأرض كلها مسجد ـ إلا الأماكن المتيقن نجاستها، لحديث رسول الله ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطهوراً. . .» وهذا من خصائص الأمة المحمدية. قال القاضى عِياض: لأن مَنْ كان قبلنا كانوا لا يُصَلُّون إلا فى موضع يتيقنون طهارته ـ ونحن خصصنا بجواز الصلاة فى جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته. هذا، ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اُشتُقَّ اسم المكان منه، فقيل: مسجد، ولم يُقَلْ: مَرْكَع، ثم إن العُرْف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس[1].

وعلى هذا فالمسجد عندما يُذْكَر تُذكر معه الصلاة التى تُقام فى كل يوم خمس مرات، وهى أظهر شعائر الإسلام، وأقوى الدلائل على الخضوع للّه والاستسلام له ـ سبحانه وتعالى ـ والصلاة فيها السجود الذى هو دليل القرب من الله، مصداق قول رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاء».

---

(١) من كتاب «إعلام الساجد بأحكام المساجد (بتصرف).

ويستطيع الإنسان أن يصلى فى أى مكان حسبما بيّنَ الرسول ﷺ فى الحديث: «جُعِلَتْ لى الأرضُ مسجدًا وطهورًا»، إلا أن إقامة الصلاة فى المسجد تجعل الإنسانَ يكتسب من وراء ذلك فوائد جَمَّة تعود عليه بالخير، وعلى المجتمع بأَسْرِه بالأمان، فهو يتَعَوَّدُ على الالتقاء بالناس فى صفاء روحى، وصفوف منتظمة، والتحام مع المسلمين فى ترابط وتآلف، وتُعَوِّدُهُ على النظام، حيث يكون خلف إمامه يقتدى به، ولا يتقدم عليه، فإذا قُضِيَتِ الصلاة نظر إلى أصحاب الحاجات فَمَدَّ يَدَ العون - إن احتاج الأمر وكان فى مقدوره - أو دَلَّ على خير، أو ساعد بكلمة طيبة، وهو فى كل حال له خير موفور، وأجر جزيل، وثواب عظيم يَفاض على قلبه سكينة ورضًا، وعلى أعصابه هدوءًا واطمئنانًا، وصدق الله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1].

إن وظيفة المسجد هى توطيد العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، على المستوى الخاص والعام، إلى أن يشمل ما بين الإنسان والإنسانية كلها... والمسجد لم يكن فى صدر الإسلام مكانًا للسجود فحسب، ولم يكن بمعزل عن الحياة وتطورها ورقيها، بل كان المسجد يلتحم مع المجتمع؛ ليقدم له النماذج الطيبة من العناصر الصالحة التى تربت بين جدرانه، ونشأت فى محيطه، وشربت من رحيق الإيمان الصافى؛ لأن الإيمان فى مضمونه صِلَةٌ بالله عن طريق العبادة، وعلاقة طيبة بالإنسانية فى التعامل، ودفع لعجلة الحياة إلى الرقى والازدهار.

ومن المعلوم أن علاقة الإنسان الروحية لا تقطعه عن الدنيا والتمتع بما فيها من حلال ومباح، فهذا رسول الله ﷺ وَفَدَ عليه رَهْطٌ من ثلاثة أشخاص يسألون عن عبادته - وكأنهم تَقالُّوهَا[2] - فعزم أحدهم على قيام الليل كله،

---

(١) سورة محمد - الآية الثانية.

(٢) أى: عَدُّوها قليلة. والضمير فى «تقالُّوهَا» يعود على عبادتهم التى يُؤَدُّونها.

والآخر على صيام الدهر كله، والثالث على الامتناع عن الزواج.. وكل هذا فيه تعطيل لنواميس الحياة ومتطلبات المجتمع، ولكن تأمل ما قاله النبى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «أمَا إنِّى لأخْشَاكُمْ لله وأتْقاكُم له، ولكنِّى أقُومُ وأرْقُدُ، وأُصومُ وأفطرُ، وأتزوجُ النساءَ، فَمَنْ رغِبَ عن سُنَّتى فَلَيْسَ مِنِّى.

إن الإسلام يمقت الرهبانية المبتدعة، والعزلة عن المجتمع؛ لأن ذلكَ ضياعٌ لطاقة المفروض فيها أن تكون بَنّاءةً فى سبيل تقدم الإنسانية ورقى البشرية؛ لهذا يقولُ الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص - وكان يرهق نفسه بكثرة الصيام والقيام: «صُمْ وأَفْطِرْ، وقُمْ ونَمْ، فإنَّ لجسَدكَ عَلَيْكَ حقًا، ولعينيك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا (أى لضيوفك). وتأمل فى هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين عثمان بن مظعون. يقول الرسول ﷺ: «يا عُثْمَانُ، أرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتى؟ فيقول عثمان: يا رَسُولَ الله، ولكِن سُنَّتك أطْلُب. فيقول رسول الله ﷺ: «فإنى أنامُ وأُصلِّى، وأصُومُ، وأفطرُ، وأَنْكَحُ النساء، فاتّقِ الله يا عُثمان، فإنَّ لأهْلكَ عَلَيْكَ حقا، وإنَّ لضَيْفكَ عليك حقا، وإنّ لنَفْسكَ عليكَ حقًا، فَصُمْ وأَفطِرْ، وصَلِّ ونَمْ». رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها. وقد كان عثمان ابن مظعون أراد أن يعتزل المجتمع ويضع نفسه فى رهبانية ليست من طبيعة الإسلام.

إن رسالة المسجد توجد الالتحام بين الفرد والمجتمع؛ لهذا كانت الصلاة - التى هى المظهرالعملى لذلك - دافعة للخدمة الاجتماعية بأجلى صورها، فهى أولا تنهى الإنسان عن فعل الرذيلة، وتحثه على الخُلُق القويم. واسمع معى لقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

فالصلاة تحول بين الإنسان وبين ارتكاب الخطايا وإتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ذلك لأن الصلاة معراج للروح إلى الصلة بالله رب العالمين،

(١) سورة العنكبوت - من الآية ٤٥.

وهى تجعل الإنسان فى مراقبة دائمة لله الواحد الأحد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1].

وفى حديث رسول الله ﷺ وقد سُئل عن الإحسان، فقال: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه فَإِنْ لم تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَراكَ». فالإنسان لا يفعل إلا ما يُرضى الله، الذى صلى له وسجد، وخشع قلبه له فى محراب التبتل. والصلاة كذلك تُصَفِّى النفس من الكبر والغرور، فلا يتكبر الفرد على إخوانه ولا يتعالى عليهم؛ لأنه يعلم أن الله لا يحب المتكبرين، وأن الكبرياء للّه وحده، وهو فى صلاته يضع أشرف أعضائه - وهى الجبهة - على الأرض أثناء السجود فى ذلة لله وخشوع.

وقد روى البزار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قول النبى ﷺ: «يَقُولُ اللهُ سُبحانه: إنّما أتَقَبَّلُ الصَّلاةَ ممَّنْ تَوَاضَعَ بها لِعظَمتِى، ولم يَسْتَطِلْ بها على خَلْقِى، ولم يَبِتْ مُصرا على مَعْصِيَتِى، وقَطَعَ النهارَ فى ذِكْرِى، ورَحِمَ المسكينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَالأَرْمَلَةَ والمُصَاب» ولقد نَعَى الله على أَقْوَام يتظاهرون بالصلاة وهم لا يفقهونَ العلاقة الاجتماعية التى تربطهم بالناس؛ لذلك تبلَّد شعورهم، ومات فيهم الإحساس بالمسئولية تجاه جيرانهم وأبناء مجتمعهم، فهم يمنعون الأشياء البسيطة عن التداول، ويحجبون خيرهم عن الناس، فمثلهم كمثل السّاهى عن الصلاة التى هى عماد الدين، يقول الله فى بيان هذا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[2].

إن الصلاة لم تُرَقِّقْ قلوبهم، ولم تفتح للخير صدورهم؛ لهذا توعدهم الله بالويل.

ثم إن الصلاة قوة تمد الإنسان بمدد إلهى، وتعصمه من التردى فى مهاوى الرذيلة والارتماء فى أحضان الشيطان؛ لأن عقيدته قوية، وفؤاده ثابت، وصلته

(١) سورة البقرة - من الآية ١١٥.

(٢) سورة الماعون - الآيات من ٤ - ٧.

المجتمع، يبين هذا قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1].

إن الصلاة ـ وهى شعار المسجد ـ تصقل نفس المؤمن، وترهف حسه، وترقق وجدانه، وتمد المؤمن بقوة روحية نفسية تجعله يواجه مشاكل الحياة ومتاعبها بقلب قوى، وإرادة صلبة، وعزيمة لا تلين، لهذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

ويقول فى آية أخرى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3].

إن المسلم فى الصلاة يفضى إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه ضعفه، ويغسل عن قلبه ماران عليه من صدأ، وما ارتكبه الإنسان من ذنوب، فهو يدخل فى الصلاة ليغسل فؤاده، ويطهر قلبه، بعد أن غسل ظاهره وتطهر بالماء، فهو فى الصلاة يتطهر نفسيا، فعن أبى هريرة ـ رضى اللّه عنه ـ قال: «سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: أرأيتمُ لو أنَّ نهرًا بباب أحَدِكُم يغتسل فيه كل يومٍ خمسَ مرات، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنه شىء؟ قالوا: لا يبقَى مِنْ دَرَنه شىء. قال: فذلك مثلُ الصلوات الخمس، يمحُو الله بهن الخطايا».

ولابد أن يعرف الإنسان أنَّ الصلاة صِلَة باللّه، فيها كل السعادة الروحية، وهى كذلك صلة بالناس؛ لأنها تجعل نفس المؤمن فياضة بالبر والخير لبنى البشر جميعًا، وهو ما نسميه بالعمل الاجتماعى والمساعدة لأى إنسان، فقد روى الطبرانى عن عمر بن الخطاب، عن رسول اللّه ﷺ قال: «أحَبُّ الأَعْمَال

(١) سورة المعارج ـ الآيات من ١٩ ـ ٢٣.

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٥٣.

(٣) سورة البقرة ـ الآيتان: ٤٥ و ٤٦.

إلى الله سرورٌ تُدْخِلُه على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبَةً، أو تطرد عنه جوعًا، أو تقضى عنه دَيْنًا». وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: أحب الناس إلى الله أَنْفَعُهَم للنَّاسِ». وفى حديث رواه الترمذى: «كُلّ المُسلِم على المسلم حرَامٌ: دمُهُ، وَمَالُهُ، وعِرْضُهُ».

وفى رواية للبخارى «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلمُونَ من لِسَانه وَيَدِه». فهل رأت الإنسانية فى مذاهبها الوضعية أو مِلَلِها وأفكارها مثل تلك الفريضة التى تضىء قلب الإنسان وتمده بشحنة إيمانية وومضات نفسية تدفعه إلى إتقان العمل مع حُسْنِ الخلق ودوام المراقبة لله رب العالمين؟!

إن الفضل ما شهدت به الأعداء.. يقول الكسيس كاريل، وهو طبيب مشهور: «لعل الصلاة هى أعظم طاقة مُوَلِّدَة للنشاط عُرِفَتْ إلى يومنا هذا، وقد رأيت - بوصفى طبيبًا - كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم. إن الصلاة كمعدن الراديوم، مصدر للإشعاع، ومولد ذاتى للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها.

ولا عجب بعد ذلك أن كانت الصلاة تغرس فى مقيميها الروح الرياضية؛ لأنها تقوى عضلات البدن، والواجب على المسلم أن يكون قويًا فى عقيدته وبدنه؛ لأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. والصلاة أقوال وأفعال فيها الحركة مع اليقظة؛ لأن الغفلة فى الصلاة تُفقد حلاوتها. وكل جوارح الإنسان فى الصلاة تعمل، ومن فِعْل النبى ﷺ فى الصلاة أنه كان يقف فى الصلاة وقْفَةً معتدلة، لذلك رأى عمر بن الخطاب رجلا يتماوت فى صلاته، فقال له: لا تُمتْ علينا دِينَنَا أماتَكَ الله! ورأى رجلاً يُطَأْطِئ رقبته مُظْهِرًا للخشوع، فقال له: ارفع رأسك؛ فإن الخشوع فى القلوب وليس الخشوع فى الرقاب.

الصلاة عند الأمم السابقة

وهذه الصلاة كانت معروفة لأهل الديانات السابقة، وكانت مناسبة لعصرهم

ووقت نزول الرسالة عليهم، يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[1].

ففى الآية بيان أن الأديان السابقة عرفت أركان الإسلام الذى بَشَّرَ به خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، فقد جاء على لسان سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[2].

كما مدح القرآن سيدنا إسماعيل لأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[3].

وفى وصية لقمان لولده يقول له: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[4].

وموسى عليه السلام عند بَدْء مناجاته لربه فى الساعات الأولى للوحى سمع من ربه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[5].

ويوصيه وهارون فيقول لهما: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[6].

وجاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[7].

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآية ٧٣.
(٢) سورة إبراهيم ـ الآية ٤٠.
(٣) سورة مريم ـ الآية ٥٥.
(٤) سورة لقمان ـ الآية ١٧.
(٥) سورة طه ـ الآية ١٤.
(٦) سورة يونس ـ من الآية ٨٧.
(٧) سورة مريم ـ من الآية ٣١.

ويبدأ الله بها أوصاف المؤمنين، فيقول الحق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

وهكذا يختتم الله أوصاف المؤمنين بأنهم يحافظون على الصّلاة. هذه الصلاة أمرَنَا الله أن نحافظ عليها في الحضَر والسفر، في الحرب والسلم، في الحر والبرد، فيقول الحق سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[٢].

وقد توعد الله بالويل لمن يسهو عن الصلاة، أو يقصر فيها ويهملها حتى يضيع وقتها، فقال الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٣].

وهذه الصلاة هي الشعار الفاصل بين المسلم وغيره، ففي الحديث: «العَهْدُ الذي بيننا وبيْنَهُم الصَّلاَةُ، فَمنْ تَركَهَا فقد كَفَرَ». والنصوص على ذلك كثيرة، والأدلة متعددة. ومكانة الصلاة في الإسلام كمنزلة الرأس من الجسد، فهي عمود الدين، وأول ما يُحاسَب عليها الإنسان يوم القيامة، وهي أول عبادة فُرضت على المسلمين بمكة قبل الهجرة، وفُرضت في السماء ليلة الإسراء والمعراج بخطاب مباشر من الله إلى حبيبه ومصطفاه، وهذا دليل على سُمو

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات من ١ ـ ١١.
(٢) سورة البقرة ـ الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩.
(٣) سورة الماعون ـ الآيتان ٤ و ٥.

منزلة الصلاة وأهميتها عند الله، وهى كذلك عبادة قديمة، وشعيرة مشتركة بين الديانات السماوية جميعًا.

والصلاة تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات، فهى تبدأ من أول لحظة يستيقظ فيها الإنسان من نومه وتشيعه إلى مرقده فى آخر النهار، وهى تعود الإنسان على ما يأتى:

١ - النظافة:

الإسلام هو دين النظافة، حث عليها ودعا إليها ونبه إلى فعلها.. فالصلاة التى هى عمود الدين وأساس الإسلام لا يقبلها اللّه إلا إذا تطهر الإنسان لها، يغتسل ويتوضأ، والوضوء مأخوذ من الوَضَاءَة، وهى الحسن والنظافة، والوضوء مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. وإذا كانت الصلاة مفتاح الجنة فمفتاح الصلاة الوضوء، يقول الحق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1].

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: «لا يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةَ أحَدِكُم إذا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأ»، وهو معلوم للعام والخاص، فمن أنكر مشروعيته كفر. كما أنه ليس من خصائص الأمة المحمدية، وإنما كان معروفًا للأمم السابقة كذلك، ففى الحديث عن النبى ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ واحدَةً فتلكَ وظيفةُ الوضُوء التى لابُدَّ منْهَا. وَمَنْ تَوَضَّأَ اثْنَيْنِ فله كِفْلاَنِ. ومَنْ توضأ ثلاثًا فذلك وضُوئى ووضُوء الأَنْبياء قَبْلِى».

وقد رَغَّبَ الشارعُ فى الوضوء وبَيَّنَ أن له ثوابًا، ففى الحديث: «مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْر كتبَ الله له به عَشْرَ حَسَنَات». إن الصلاة - كما أنها عبادة روحية - هى كذلك تَطُّهر وتزين وتجمُّل، واشترط الله لها طهارة الثوب والبدن والمكان؛

---

(١) سورة المائدة - من الآية ٦.

ذلك لأن النظافة من الإيمان. يقول الله سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

وهذا هو الغسل الظاهرى، وهناك الغسل الباطنى، وهو طهارة القلب من الغِلّ والحقد والحسد والكراهية؛ لأن المسلم مطلوب منه أن يزين ظاهره بالطهارة الحسية، ويزين باطنه بطهارة القلب وحُسن الخلق، والبعد عن مساوئ الأخلاق والتحلى بالفضائل؛ لهذا تقول لهم الملائكة عند الوفاة ما حكاه القرآن: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]

وفى آية أخرى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3].

فالطيب فى الدنيا بالرائحة الكريمة والسمعة الطيبة بين الناس، وصدق الله العظيم: ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[4].

فالظلمات هى المعاصى وسوء الخُلق والتطاول على الناس، والنور هو نور الإيمان، وحلاوة اليقين، وحُسن الخلق، وحب الخير للناس، فيدخل الإنسان فى الصلاة على ضيافة الرحمـٰن، ويناجى الأحد الفرد الصمد، وتكون الصلاة قُرَّة عين للإنسان يتنعم فيها بذكر الله. ففى الأثر: «يا مَعْشَرَ أوليائى، تَنَعَّمُوا

---

(١) سورة المائدة ـ من الآية ٦.

(٢) سورة النحل ـ الآية ٣٢.

(٣) سورة الزُمَر ـ الآية ٧٣.

(٤) سورة الحديد ـ من الآية ٩

بِذِكْرِى» لهذا أثنى الله على أهل المسجد النبوى لحرصهم على النظافة والتطهر والتزين، فقال: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

وفى الحديث: «تَنَظَّفُوا فَإِنَّ الإِسْلاَمَ نَظِيفٌ». وفى حديث آخر: «إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحبُّ الطِّيْبَ، نَظِيفٌ يُحبُّ النَّظَافَةَ». وفى القرآن الكريم: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[2] . والنظافة هى الوضاءه والجمال الظاهرى والمعنوى.

فالمسلم يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة طيب الرائحة، حسن الملبس، متجنبًا لكل ما يؤذى إخوانه. وفى الحديث: «مَنْ أَكَلَ البصلَ والثوْمَ فلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا هَذَا، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مما يتأذَّى منه بَنُو آدَم».

ومن المعلوم أن هذه الأشياء مباح أكلها، لكن نظرًا لرائحتها التى تخرج من فم آكلها جاء النهى عن أكلها عند حضور الجماعة فى المساجد.

وفى زماننا هذا يُقاس على ذلك أصحاب المهن الملوثة ملابسهم بأشياء تؤذى الآخرين، وكذلك من يلبسون الجورب «الشراب» الذى له رائحة كريهة فى أقدامهم، فعليهم أن يغيروا ويخلعوا تلك الأشياء حتى لا يتسببوا فى إيذاء الآخرين بالروائح الكريهة أو الثياب المستقذرة. وكذلك تطهير الفم وغسله بالسواك؛ لأنه كما جاء فى الحديث النبوى: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ للرَّبِّ». وعلى الذين يشربون «التمباك» ـ الدخان ـ غسل أسنانهم وإزالة الرائحة التى تظهر من فمهم؛ لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم. وفى الحديث: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِى لأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ عندَ كُلِّ صَلاَةٍ» وقد أمر الرسول ﷺ بطهارة الأجساد، فقال: «طَهِّرُوا هَذِه الأَجْسَادَ طَهَّرَكُم الله».

وإذا كان الطب الوقائى فى مجتمعنا اليوم يُدرس فى الجامعات فإن الإسلام

---

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأعراف ـ من الآية ٣١.

حَثَّ عليه وطَبَّقَهُ عمليًا فى منهجه اليومى عند أداء الصلاة، والوقاية خير من العلاج، والإسلام رَبَّى أتباعه على النظافة؛ ليتكامل المؤمن فى شخصيته وإنسانيته ووعيه وإدراكه للمهمة الملقاة عليه، والغاية التى يسعى إليها؛ ذلك لأن العقل السليم فى الجسم السليم.

ولقد كان الصحابة - رضى الله عنهم - يتجملون ويتزينون ويلبسون أحسن ما عندهم من الثياب، ويقولون معللين: إنَّ الله جَميلٌ يُحب الجمال، وإذا تزين المسلم وتجمَّل وذهب إلى المسجد لأداء الصلاة - التى هى مناجاة لله وصلة بربه ومعراج إليه - وأقبل على الله، فإنه - سبحانه - يُقبل على العبد ويهش لمَقْدَمِه، ويتبشش له،[1] ويباهى به ملائكته. والصلاة بتلك الطريقة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

لقد كان النبى ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ أو اشتد به كَرْبٌ، أو نزلت به ضائقةٌ، نادى على بلال فقال له: «أَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ يَا بِلاَلُ». ولم يقل: أَرِحْنَا منها، بل قال: أرحنا بها؛ لأنها راحة للمؤمن، فيها يُفْضى المؤمن إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه همه، ويستفتح بها أبواب رحمة اللّه؛ ولذا قال الرسول ﷺ: «إنَّ لله مَلَكًا يُنَادى عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ: يا بَنِى آدَمَ، قُومُوا إلى نِيرَانِكُم التى أَوْقَدْتُمُوهَا فأطفئوها». إِنَّهَا نارُ الحقد الذى يشتعل فى القلب، فيأتى الصلاة لتكون كمضخة الإطفاء التى تطفئ النار وتمسح دخانها، وتغسل أثر الدخان الأسود من على قلبه.

إِنَّ اللحظات الطيبة المباركة التى يقف فيها الإنسان أمام ربه فى اليوم خمس مرات تُكَفِّر خطاياه، وتزيل السيئات، وتنزع من قلب الإنسان الأحقاد. ولقد صور الرسول ﷺ ذلك بوسائل عملية توضيحية، ففى رواية عن سلمان الفارسى: أنه كان مع النبى ﷺ تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا فَهَزَّهُ حتى تحاتَّ وَرَقُهُ[2]، ثم قال: «يا سَلْمَانُ ألا تسألنى لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: ولِمَ تَفْعَلُه؟

(١) يتبشش له: يبتسم له ويلقاه لقاءً جميلاً.
(٢) تحات ورقه: تناثر وتساقط.

قال: إنَّ المسلمَ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوضُوءَ ثم صَلَّى الصَّلوات الخمس تحاتَتْ خَطايَاهُ كما تحاتّ هذا الورق»، ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1].

٢ ـ النظام:

إن المسجد ـ وشعاره الصلاة ـ دار عطاء، يلقن العلم، ويوجه للعمل، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

فالمسجد يُغَذِّى الروح، ويُهذِّب البدن، ويعنى بالتربية وسُمُوِّ الروح. فالصلاة حركة وعمل وفهم، فاللسان يعمل قارئًا، يسبح بحمد الله ويشكر على ما أنعم. والجسم يتحرك قائمًا راكعًا ساجدًا، والعقل يعملُ متدبرًا يفكر فيما يتلو من قرآن، والقلب فى كل ذلك حاضر يستعر خشية الله، وفى ذلك تربية للضمير الذى هو أقوى سُلطة على الإنسان، وكل ذلك يعلم الإنسان النظام، فهناك ضبط الوقت المحدد، وتلك الصفوف المتراصة المتلاصقة المستقيمة لاعوجَ فيها ولا اختلاف بين أفراد الصف، وصوت الإمام يُدَوِّى فى كل صلاة: ساوُوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة؛ إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، وقد فهموا هذا من قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3]

الصفوف مستقيمة، القدم إلى القدم، وصوت نبيهم يرن فى آذانهم: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

---

(١) سورة هود ـ الآية ١١٤.

(٢) سورة القصص ـ الآية ٧٧.

(٣) سورة الصف ـ الآية ٤.

٣ ـ المساواة:

إن أهم مظهر يتجلى فى المسجد أثناء الصلاة هذه الصفوف المتراصة فى إخَاءٍ تام ومحبة، الناس فيه سواسية كأسنان المشط، فليس فى المسجد مكان للوزراء، وآخر للأمراء، وثالث للخفراء، كلا، بل الصف الأول لمن حضر سابقًا، تجد الغنى بجوار الفقير، والخادم أمام المخدوم، والعالم المؤهل بأعلى المؤهلات وفى أرقى المناصب قد يتقدم عليه عامل أو فلاح بلاغضاضة أو عدم ارتياح، وإنما الكل فى جو روحانى طاهر، فيه الصفاء والمحبة والإحساس بالرضا. . . فى بدء الدعوة أراد الأغنياء أن يجعلوا لأنفسهم يومًا يلتقون فيه برسول الله ﷺ وللفقراء يوما آخر حتى لا يجتمع هؤلاء مع هؤلاء، فلا بد أن تحفظ الكرامة ـ على زعمهم ـ إلا أن السماء رفضت هذا الطلب، ونزل الوحى على الحبيب المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٢).

لقد جعل الإسلام من الحقوق الطبيعية لأى إنسان أن يتبوأ بدينه وخُلُقه أعلى المراتب، ونسب الإنسان بالله فى عمله، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نَسَبُه. إن الصف الأول لمن حضر مبكرًا حتى ولو كان أسود اللون، فليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى، ولعلنا نلحظ هذا من أن الوزير الأول للإعلام فى

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٥٢.
(٢) سورة الكهف ـ الآية ٢٨ و صدر الآية: ٢٩.

الدولة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ، كان بلال بن رباح الحبشى. لقد حَطَّمَ الإسلام الفوارق الزائفة من أول يوم لقيام الدعوة الإسلامية، وتَأَمَّلْ فى خيرَةِ الصحابة والصفوة الأولى من المؤمنين - وهم: بلال الحبشى، وأبو بكر العربى، وسَلْمان الفارسى، وصُهَيْبٌ الرُّومِىّ - تجد أنَّ من حق العبد الأسود وهو فى خدمة سيِّده مالسيِّده تماما من الحقوق الدينية، يُصاحِبُ القائدَ، ويُجالس الرئيسَ، ويناقش فى أمور الدين. ولقد هبَّتْ نسمة الجاهلية يومًا فى لفظ صَدَرَ منْ أبى ذَر وهو فى ثورة غضب مع بلال، فقال أبو ذَر لبلال: يَابْنَ السَّوْدَاء، وسمعها الرسول ﷺ، فقال لأبى ذر: «إِنَّكَ امرؤٌ فيكَ جَاهليَّةٌ، دَعْهَا فَإِنَّهَا مُنْتنَة» ثم يقول ﷺ «إِنَّ الله أَذْهَبَ عنْكُم نخْوَةَ الجاهليَّةِ وتَعَظُّمها بالآباء، كُلُّكُمْ لآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم».

ومما قيل:

لا تَقُلْ أَصْلِى وفَصْلِى أبدَا   إِنَّما أَصْلُ الفَتَى ما قَدْ حَصَلَ

ويقول عمر بن الخطاب - رضى اللّه عنه -: «لو جَاءَتِ الأعاجِمُ بالأعمالِ وجِئْنا بلا عمل لكانُوا أحقَّ بمحمدٍ منا يوم القيامة. وفى الأثر «الجنة لمن عَبَدَنى ولَوْ كَانَ عَبْدا حَبَشيًا، وَالنَّارُ لمن عصانى ولو كَانَ شَرِيفًا قُرَشيا».

فالمسجد يعلم الناسَ عمليًا هذا الوعى الاجتماعى الرائع الرائد؛ ليتحقق الخير فى المجتمع، والكل ينطلق لأداء واجبه بهدوء واستقرار. إننا اليوم نرى - وفى أرقى الدول - التفرقة العنصرية على أشدها، حتى فى مراحل التعليم أو فى ركوب الأتوبيس أو المطاعم، ثم يقولون إنهم فى حضارة، أين هذا من منهج الإسلام ونظامه الذى يسوى بين الناس، وشعاره الذى يتردد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؟[1].

إن على الإنسانية اليوم أن تتجه إلى الإسلام ومَعِينه الصافى، وتعاليمه

(١) سورة الحجرات - من الآية ١٣.

السمحة؛ لتسعد البشرية وتطمئن النفوس. إن المسجد قائم فى الأرض؛ ليصحح مَسار الركب، ويمنح البشرية زادها وتقواها. إن بيوت الله فى أرضه المساجد، يدخل الداخلُ إليها فلا يُرَدُّ ولا يُمْنَعُ، اللهم إلا إن حجب نفسه هو بقلبه عن الله، وانصرف عن رب البيت.

إن المسجد دار ضيافة، مَنْ دَخَلها بصفاء قلب وطهارة جسد أعطاهُ الله أعَزَّ عَطاء، وأجزلَ الثوابِ، بقصده وإقباله وطهارته، وأكْرَمَ جزَاء. ففى الحديث: «إنَّ بُيُوتي فى الأرض المسَاجد، وإنَّ زُوَّارى فيها عُمَّارها، فَطُوبَى لِمَنْ تَطَهَّرَ فى بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِى فى بَيْتى، وحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ».

إذا كانت هناك تصرفات سيئة لبعض المترددين على المساجد فليس هذا ذنبَ الإسلام ولا عيبًا فيه، كلا، ولكن الناس أسَاءُوا استعماله ولم يفهموا تعاليمه.

علينا أن نصحح المسار ونخلص النية بحسن القصد؛ لأن الصلاة دين، والعمل دين، والتعاون بين الناس دين، والصدق فى الكلام دين، والوفاء بالعهد دين، والأمانة دين، والعفة دين، وحب الخير للناس دين، والمحافظة على المال العام والخاص دين، وبناء الأسرة وتربية الأولاد والصوم والزكاة والحج دين، لا يمكنك أن تفصل بين الأشياء أبدًا وتقول: هذا دين وهذه دنيا، كلا، فالدين للحياة كلها، يعمل على إسعاد الفرد وراحته، ورضا الأمة وتقدمها، والانسجام التام بين الفرد والجماعة، ونرد على من يريد أن يفرق بين خلق وخلق بقول الحق: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

إن الحياة عندما انفصلت عن المسجد وعطائه كانت عذابًا وجحيمًا، إذ تبلَّدت القيم، وانهارت الأخلاق. إن الصلاة بين تاركها ومقيمها مظلومة؛ لأنها

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ٨٥.

خُلقت للحياة، متعاونة مع كافة القيم الكريمة التى تخدم الدنيا بأسرها، فهى مع الأطفال تنمى فيهم المبادئ الأخلاقية الفاضلة، ومع الشباب تثير فيهم قوة العزم، وتعظم نزعة الفكر، وتحفظ شعلة اليقين. إنها عندما يؤديها الإنسان فى المسجد تُنْبِئُ عن المريض فَيُزَارُ، وعن الفقير فَيُسَاعَدُ. إنها فى البيت مشعل نور، وللأسرة زاد طهور، وفى المجتمع غنى للنفس، ومساواة بين الجميع.

٤ ـ الطاعة:

المسجد والصلاة فيه فى جماعة لها ثواب عظيم، وأجر جزيل، والصلاة فى جماعة ثوابها يفوقُ ثواب صلاة الفرد بمفرده بسبع وعشرين درجة، كما جاء فى حديثٍ متفق عليه. والإسلام يعمل على تنمية روح الجماعة والألفة فى نفس الفرد. فإذا صلى الإنسان منفردًا لسبب من الأسباب فهى صلاة صحيحة مقبولة، لكنها تقل فى الثواب عن الصلاة فى جماعة بسبع وعشرين درجة. والدعوة إلى الصلاة تتم بنشيد إسلامى رائع، هو لكل المسلمين أينما كانوا، تنطلق به أصوات المؤذنين: «الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا أله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حَيَّ على الصَّلاة. حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح. حى على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إلـه إلا الله». وفى الفجر يُزَاد: «الصَّلاةُ خَيْرٌ من النوم. الصلاة خير من النوم». بعد «حَيَّ على لفلاح» الأخيرة.

ويسمع المسلمون هذا النداء، فيلبون على الفور ويتركون عملهم، ويهرعون إلى المساجد ينتظمون فى صفوف متراصة، وإخوَّة كريمة، ومحبة غامرة، يأتمون بإمام واحد، إذا كبَّرَ كَبَّرُوا من خلفه، وإذا قرأ أَنْصتُوا، لا يسبقونه بركوع أو سجود؛ لأن حديث رسول الله ﷺ هم له واعون: «ألاَ يَخْشَىَ إذا رَكَعَ أَحَدُكُم أو سَجَدَ قَبْلَ الإمام أَنْ يَمْسخَ الله رأْسَهُ رَأْسَ حمَار». ويوم الجمعة الذى هو يوم الزينة، والعيد الأسبوعى للمسلمين، يتجمَّلُ فيهِ الإنسان ويتطيَّبُ ويتسوَّكُ، ويذهب مبكرًا إلى المسجد، ويسمع للخطيب فى خشوع وإنصات؛ لأن منْ قال

لصَاحبه يوم الجمعة والإمام يخطبُ: أَنْصتْ، فَقَدْ لَغَا، ومَنْ لغَا فلا جُمعة له. إن هذَا تدريب عملى على الطاعة؛ لأن من توجيهات الإسلام على لسان صاحب الدعوة الأول: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّىَ علَيْكُم عَبْدٌ حبشِىٌّ كأَنَّ رَأْسَهُ رأسُ زبيبة».

ولقد هم الرسول ﷺ أن يُحَرِّقَ على قوم بُيُوتَهُم؛ لأنهم يتخلفون عن الجماعات، ولما كان المسجد هو عنوان المسلمين فإنهم يجتمعون فيه، ويتدربون على هذا اللون الجماعى الذى يرقى بالأمة ويسمو بها، ويضعها فى مصاف الأمم، ومكان الصدارة منها؛ لأنهم بهذا الأداء يتعارفون ويتعاونون على حل مشاكلهم بروح الحب والتفاهم المبنى على النقاء والطهر والصفاء. وابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أنّ يَلْقَى الله غداً مُسْلمًا فَلْيُحَافظْ على هؤلاء الصَّلوات حيث يُنادى بهنَّ، فإن الله شَرَعَ لنبيكم ﷺ سُنَّةَ الهدى، وإنهن مِنْ سُنة الهدى، وإنكم لو صَلّيْتُم فى بُيوتِكُم كما يُصَلِّى هذا المتخلِّفُ فى بيته لَتَرَكْتُم سُنَّةَ نبيكم، ولو تركتُم سُنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فَيُحْسِنُ الطهورَ، ثم يعمد إلى المسجد من هذه المساجِد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحطُّ عنه سيئة. ولقد رأينا وما يتخلف عنها ـ أى صلاة الجماعة ـ إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤْتَى بِهِ يتَهادَى بين الرجلين يُسْنِدَانِه لمرضه حتى يُقَامَ فى الصف».

الله أكبر. إن هذا اللقاء يُقوِّى روح الجماعة ويشد أَزْرَها، ويدفع بها إلى زيادة الإنتاج فى كل مناحى الحياة. والإمام الذى يصلى ويخطب ليس دكتاتورا يفرض رأيه على الناس أو يخطئ فلا يُقَوَّمُ، كلا، إن الإمام إذا أخطأ فى قول أو فعل فعَلَى المصلين من خلفه أن يُصححوا له خَطَأَهُ ويردوه إلى الصواب، وينبهوه إذا غفل، ويُذَكِّرُوهُ إذا نسى، ويعود هو إلى الحق. إن المسلمين الذين يناجون ربًا واحدًا، ويتلون كتابًا واحدًا، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ويقفون خلف إمام واحد، وأعمالهم واحدة ـ من قيام أو قعود، ولا يسلمون حتى يسلم

الإمام، الذى تتوافر فيه صفات اليقظة والقدرة على الاستيعاب - وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾[1].

وفى قول الحق: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[2].

إن المسلمين الذين يجتمعون فى المسجد يوميًا خمس مرات، ثم يجتمعون مرة كل أسبوع فى يوم الجمعة الذى يقول الله فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

يتعلمون ما يسعدهم وينفعهم. فعلى المسلمين أن يطيعوا ربهم ويتركوا البيع والشراء يوم الجمعة، ويذهبوا إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة الجامعة التى لم يبح الرسول ﷺ التخلف عنها إلا لعذر قاهر، ففى الحديث: «مَنْ تَرَكَ ثَلاثَ جُمَعٍ تَهَاونًا بِها طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِه». وفى حديث آخر: «لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمْ - أى تركِهِم - الجمَاعَات، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ».

يجتمع المسلمون فى هذا اليوم الذى يكون منطلقًا لإظهار قوة المسلمين، ويسمعون إلى الخطيب يُذَكِّرُهُمْ باللّه، وآياته، وملائكته، وأنبيائه، ويوم القيامة وأهواله، فترق قلوبهم، ويزداد العطف بينهم، وتوجد روح الأخوة والإيثار فى نفوسهم، ثم يأتى العيد وصلاته جامعة؛ لأنها أشبه بمؤتمر كبير جامع لكل فئات الحى وأجناس المجتمع، ويُصَلَّى العيد فى الخلاء. عن أم عطية - رضى

(١) سورة التوبة - من الآية ٧١.

(٢) سورة النساء - من الآية ٥٩.

(٣) سورة الجمعة - الآية ٩.

الله عنها قالت: أَمَرنَا رسولُ الله ﷺ أن نخرجَ فى الفطْرِ والأَضْحَى: العَوائِق، والْحُيَّض، وذوات الخدور: فأما الحيض فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلاَةَ وَيَشْهَدْنَ الخَيرَ، ودعوة المسلمين. قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، إحْدَانَا لا يَكُونُ لها جِلْبَابٌ. قال: لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جلبابها! أرأيت روح التضامن وهى تسرى فى هذه التعليمات التى توجه إلى الطاعة؟ إنَّ الواجب على المسلم أن يكون هينًا لينًا، يُحِبُّ لله ويُبغض لله، ويطيع الله ورسوله حتى ولو خالف هواه، يقول القرآن: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وفى الآية الأخرى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ﴾[2].

٥ ـ العلم:

المسجد دار عطاء يلقن العلم الذى يُهذب النفس، ويصقل الروح، ويرقق الوجدان؛ لأن العِلْمَ مَنْ سِمَاته أن يرتقى بالفكر الإنسانى، وليس من دين كَرَّمَ العِلْمَ ودعا إليه مثلما فعل الإسلام، ومعجزته الخالدة الباقية هى القرآن، كتاب العقل والوجدان، هذا الكتاب لم يطلب منك أن تغلق فكرك وتصم أذنك ـ لا ـ إنه دعاك إلى التأمل فى نفسك: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3].

وإلى النظر فى الكون: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[4].

إن حرية الفكر، ونزاهة التقدير، وسماحة التقبل، خصائص يتميز بها الإسلام من أى دين آخر، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[5]

(١) سورة النور ـ الآية ٥١.
(٢) سورة النور ـ من الآية ٥٤.
(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٢١.
(٤) سورة يونس ـ من الآية ١٠١.
(٥) سورة الكهف ـ من الآية ٢٩.

إن الإسلام يطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل والفكر، وإقامة الدليل العقلى، واستعمال القياس الصحيح؛ ليصل من وراء ذلك كله إلى أن للكون ربا صانعًا، عالـمًا قديرًا، وهو يلفت نظرنا إلى مافى الكون من آيات مبثوثة تعود على الإنسانية بالمنفعة، إن نحن أحْسَنَّا التأمل فى أمرها ومعرفة قانونها، وربط أسبابها بمسبباتها، يقول الشاعر:

يا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تريَاَ وَجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الربُّا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

ويقول الآخر:

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

واقرأ معى قول الحق، وهو أصدق القائلين: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

وكذلك قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[3].

وأيضًا قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[4].

إن الحضارة التى تعيش الإنسانية اليوم فى ظلها وتحيا فى رحابها ليست عمل جيل من الأجيال، بل هى عمل الإنسانية منذ هبط آدم من الجنة إلى اليوم، وسيظل ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن الإنسانية فى بناء

(١) سورة الروم ـ من الآية ٢٢.
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٩٠.
(٣) سورة الأعراف ـ من الآية ١٨٥.
(٤) سورة فصلت ـ من الآية ٥٣.

حضارتها تنزع إلى الماضى، فتعترف بجهد السابقين، وتمضى إلى المستقبل حاملة عبرة الماضى؛ لتصون بذلك جهاد اللاحقين، ويتم ذلك بما تقدمه من نتاج العقل البشرى الذى يكشف حقائق الكون مع ضمانة النتائج العقلية، والله سبحانه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] هذا، والحق سبحانه يقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2].

لهذا نرى الإسلام حَثَّ على العلم والتزود به؛ ليكون للمسلم حظ ممكن من الدنيا.

إن الإنسان المسلم لابد أن تحكمه غاية، والإنسان العظيم غايته عظيمة؛ لأن العظائم كُفْؤُهَا العُظَمَاءُ، إذَنْ فالحكمة ضَالَّتُه، ينشدها ويبحث عنها، وهو يردد: لا بَارَكَ الله لى فى يوم لا أزداد فيه علمًا، وهو يعى تلك الحكمة: «مَنِ استوى يَوْمَاهُ فهو مَغْبُونٌ، ومَنْ كَانَ يَوْمُهُ شرًا مِنْ أَمْسِه فَهُوَ مَلْعُونٌ، ومَنْ كَانَ يَوْمُهُ خيرًا منْ أَمْسِه فَهُوَ المؤْمِنُ». وهو يعنى قول الحق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

والعلم غاية الإنسان العاقل؛ لقول الله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾[4].

وغاية العلم السمو بالإنسان وإبراز خصائصه، فالعلم نور، وعلى ضوء النور يستطيع الإنسان أن يرى الأشياء على طبيعتها. وإذا كان الجهل ظلامًا فإن الإنسان فى الظلام يتخبط.

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٢٦٩.
(٢) سورة المجادلة ـ من الآية ١١.
(٣) سورة العنكبوت ـ الآية ٢٠.
(٤) سورة الأنعام ـ من الآية ١٢٢.

وعلى العاقل أن يبتعد عن المعاصى التى تُغضب الله؛ لأن المعاصى حجاب يمنع وُصول النور إلى القلب، الذى هو محل التَّلَقِّى مِن وحى الله؛ وإلهامه، لأنه الغذاء الأساسى للقلب، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

ورسول الله ﷺ يقول: «ألاَ وإنَّ فى الجسَد مُضْغَة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّه وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُله، ألا وَهِىَ القَلْبُ».

لذلك يجب علينا أن نبتعد عن المعاصى؛ لأنها غِلاف يغلف القلب ويطمس الحقيقة، فلا يهتدى الإنسان إلى الخير؛ لأنه لا يعلم بقول الحق سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ويقول الإمام الشافعى مبينًا هذا المعنى:

شكَوْتُ إلى وَكِيع سُوءَ حِفْظِى ... فَأَرْشَدَنِى إلى تَرْكِ المعَاصِى
وَأَخْبَرَنِى بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لا يُهْدَى لِعَاصِى

إن العلم هو ميراث الإنسانية كلها، ونظرة الإسلام إليه تتميز بأنها نظرةٌ إلى الإنسان مِنْ كُلِّ جوانبه، وأَخْذٌ بيده إلى ساحة الحياة وسعة الكون، مع وضع صمام الأمن فى كل شىء، وجَعْل الطريق ممهدًا للسير الآمن، وأَخْذ العبرة من الأحداث التى مرت بالبشرية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

إن الفيلسوف جوستان لوبون يقول: إن العرب هم أَوَّلُ مَنْ عَلَّمَ العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

---

(١) سورة الحج ـ من الآية ٤٦.
(٢) سورة الزمر ـ من الآية ٩.
(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٧.

ولقد كان المسجد ـ ولا يزال ـ هو بَدْء انطلاق الحركة العلمية، فهو ساحة عبادة، يُهرع إليه الراكعون الساجدون، وهو معهد وجامعة، وهو مصحف وكتاب؛ لأن فيه طبيعة الإسلام الجامعة. دين الحياة ـ وإذا كان العلم قضية الإيمان فإن فيه راحة الإنسان، والإيمان يخدم قضية السلام بين بنى الإنسان، ويضبط سلوكه؛ لأن من وراء ذلك رضا الرحمن، فالمسجد ـ إذَنْ ـ هو دار عبادة، ومدرسة تعليم فتحت صدرها للعلوم ـ ولم يقف هيابًا أمام أى لون من العلوم أو المعارف، ففى رحاب المسجد دَرَجَ العِلْمُ. وعلى حصير المسجد انبثقت ثورات فكرية ودينية وعلمية غيرت ملامح التفكير البشرى وشكلت اتجاهاته، ومن فوق منبره كم دوت صيحات نفذت بعمقها إلى جميع الأفكار.

إن المسجد لم يكن مكان ترهب أو انعزال عن رَكْب الحياة، أو دعا إلى العكوف على دراسة لون معين من ألوان الفكر ثم طلب إلى أتباعه أن يغلقوا فكرهم عن بقية العلوم، كلا، فالحقيقة التاريخية تؤكد أن المسجد اتسعت رحابه لدراسة كل فكر؛ لأن ذلك يتواءم مع طبيعة الإسلام، وحياة الداعى الأول سيدنا محمد ﷺ الذى بُعِثَ فى بيئة أمية، ماذا كان موقفه؟ كان يجادل بالحجة، ويفحم بالمنطق والدليل. لقد كان بحق أستاذًا عظيمًا ومعلمًا هاديًا، يهدى بالحكمة، ويفتح مغالق النفس، ومع هذا كان ينهى عن الجدل العقيم؛ لأن وحى السماء يقول له: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]

وهو بوصفه معلما يهدى للتى هى أحسن، يقول: «أنا ضامنُ بيتٍ فى الْجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ الْجِدَالَ وَهُوَ مُحِقٌّ».

ومَعَ ذَلِكَ لم يكن عِلم المعلم الأول ناضبًا بلا عمل، أو أنه يرسل الكلام بلا تخطيط، أو يرفع شعارات فقط، لا، لأن وحى السماء يقول له: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية ٤٦.
(٢) سورة الصف ـ الآية ٣.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾[1].

وهو صلوات الله وسلامه عليه يقول لفاطمة بنته وأَحب الناس اليه: «يا فَاطمَةَ بنت محمد، اعْمَلِى فلن أُغْنِىَ عَنْك مِنَ اللهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ عم النبى، اعْمَلْ فلن أُغْنِىَ عَنْكَ من الله شيئًا، لَا يَأْتِبنِى الناسُ بِأَعْمالِهِم وتَأْتُونِى بِأَحْسَابِكُم».

ويقول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ - إِذَا فَعَلْتَ - عَظِيمُ

ومن الطرائف ما يقوله القائل للعلماء الذين يقولون ولا يعملون:

يا عُلَمَا الأُمَّةِ يا مِلْحَ البَلَدْ   مَنْ يُصْلِحُ المِلْحَ إذا الملحُ فَسَدْ

لهذا كان عمله مطابقًا لما يأمر به، وكان هو الأخلاق العظيمة مجسدة يمشى بين الناس.

لقد خرج ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدعون اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ويرغبون إليه، والثانى يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فقال: «أَمَّا هؤلاء فيسألون الله تعالى، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيُعَلِّمُونَ الناسَ، وإنما بُعِثْتُ مُعَلِّمًا».

وكتب أبو بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - إلى أحد وُلاته: - «عليكَ بالعِلْم فإنك إن افتقرت كان لَكَ مالاً، وإن استغنيتَ كان لك جمالا». ويقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «يأيها الناسُ، عليكم بالعِلْم، فإن لله عز وجل رداءً يحبه، فمن طلب بابا من العلم رَدَّاهُ[2] اللهُ عَزَّ وجل بِرِدَائِه»، وقال

(١) سورة االبقرة - من الآية ٤٤.
(٢) رَدَّاه: أَلْبَسَهُ الرِّدَاءَ.

على بن ابى طالب لِكُمَيْل: «يا كُمَيْلُ، العلمُ خير من المال، العلمُ يحرسُكَ وأنت تحرسُ المالَ، العلم حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، المال تُنقصه الصَّدَقَةُ والعِلْم يزكو بالإنفاق».

ويقول أبو الأسود الدُّؤلى: «ليس شىء أعزَّ من العلم. الملوكُ حُكَّامٌ على الناس، والعلماء حُكَّامٌ على الملوك». ومن وصايا لقمان لولده: «يا بُنَىَّ، جَالِسِ العُلَماءَ وزَاحِمهُمْ بركبتيك، فإن الله ـ سبحانه ـ يُحيى القلوب بنور الحكمة كما يُحيى الأرض بوابل السماء، وكفى بفضل العلم شرفًا هذه النصوص التى ساقها الأئمة العظماء الذين فقهوا الإسلام، وكفى فخرًا شهادة السماء، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[1] وكذلك قول الحق: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[2].

فبدأ الحق بنفسه، وثَنَّى بالملائكة، وثَلَّثَ بأهل العلم، ونَاهِيكَ بهذا شرفًا وفضلا وجلاء.

وللإمام على كرم الله وجهه:

ما الفَخْرُ إلاَّ لأَهْلِ العِلْم إِنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدلاءُ
وقَدْرُ كلِّ امْرِىءٍ ما كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالْجاهِلُونَ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيا بِهِ أَبدًا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ

إن العلم مفجر لطاقات الوجود، وهو فى الإسلام يلتزم بشرف الحركة، وسمو الاتجاه، ويوجه طاقات الفرد إلى تطوير الحياة وإضاءة جوانبها بمشاعل الحب والأدب والخلق، واقامة العدل دون تمييز أو تفرقة بين صديق وعدو، وإذا كان المسلمون قد انصرفوا عن هذا المنهل العذب، من المعهد الرائد ومكانه المسجد، وصرفوا أنظارهم عن خصائص الإسلام وأصالته فى حرية البحث

---

(١) سورة فاطر ـ من الآية: ٢٨..

(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٨.

وأسس العلم، وحولوا أبصارهم تجاه تلك المدنيات وبريقها الزائف، وفُتِنَ البُلَهَاءُ بما لوَّح به القومُ من حضارة مادية قطعت صلتها بالروح، فإننا نقول: إن العلم الذى دعا إليه الإسلام باسم الله، غايته الحق وسعادة الإنسانية، والارتقاء بها، والدفع لها فى مضمار التقدم؛ لذلك كانت الآيات الأولى التى نزلت من السماء: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

إن الإنسانية عندما قطعت صلتها بالله واتجهت بعلمها إلى العلو والغطرسة وسلب حقوق الناس تحولت حياتهم إلى جحيم وشقاء، وجَفَّتْ حياتُهم، ونَضَبَ مَعِينُ الروح. إن القوم مخدوعون ببريق مادتهم التى تعود عليهم تدميراً وهلاكًا، ولعلنا نذكر ما فعلته القنبلة الذرية فى «هيروشيما» وبلاد أخرى وكذلك النابالم، ثم هذا الرصاص القاتل. إن الفرق شاسع بين علم الإسلام الذى يرقق الطبع، ويهذب النفس، وينمى عواطف الرحمة والإخاء والإيثار، ويضع لذلك الثواب والعقاب، ويأمرك بالأخلاق جملة واحدة لا تتجزأ: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2].

وبين علم الإنسان الذى هبط به إلى طينته فَحُجِبَ بسبب ذلك عن علم الروح، فعاش فى خوفٍ لا يعرف له أمْنًا، وفى حرب لا يعرف له سلمًا؛ لأن علمه فقد خصائص الروح التى هى من أمر الله.

عَلَى عقلاء البشرية أن يدرسوا العلم الذى نبع من المسجد، ومنهاجه واضح... إننا نصيح بهم: ادرسوا هذا الدين العظيم؛ لتعرفوا أن التنكُّرَ له خسران للإنسانية، وتعريض لأمنها وسلامها للخطر. إن كل مؤمن بالله يَيْئَسُ قلبه لجهل الجاهلين، ويَوَدُّ لو يقودهم إلى معرفة العلم الذى يُشيع الخير فى

---

(١) سورة العَلَق - الآيات من ١ - ٥.

(٢) سورة النمل - من الآية ٨٨.

أنحاء الأرض. . . والإسلام حرب على الجهل؛ لهذا نجد مشروع محو الأمية بدأ في صدر الإسلام بتوجيه من رسول الله ﷺ عندما وقع المشركون أسرى في غزوة بدر، وكان لابد لكل أسير من دفع الفدية كي يتحرر: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1].

وكان بعض المشركين يعرفون القراءة والكتابة، فوضع الرسول ﷺ أُسس هذا المشروع، وهو أن كل رجل متعلم أسير يُعَلِّمُ عشرة من المسلمين الأوائلَ، ويكون هذا فداءً له، ويُفَكُّ من الأسر. وتم هذا فعلاً في المسجد النبوي الذي كان بحق جامعة شعبية اتسعت رحابه في الليل والنهار لطلاب العلم، وعُشَّاق المعرفة، صيفًا وشتاء، لا يتقيد بسن، ولا يشترط أي رسم للالتحاق به، ولا تأمين لحصيرة، ولا يضع أي قيد أمام أي طالب، ولا يشترط الحصول على أي شهادة، اللهم إلاَّ الاعتراف بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا.

فالمسجد ما هو إلا جامعة شعبية تعلم جميع العلوم والمعارف، من اقتصاد، وسياسة، وزراعة، وطب، وتجارة. . . الخ، ولابد لطُلاَّب تلك المعارف أن يتعلموا أولاً أصول العقيدة؛ لأنها السلاح الذي يمد الإنسان بالقوة، ويعصمه عن التردي في مهاوي الرذيلة. والعبادات، لابد أن يُلِمَّ المسلم بشروط صحتها، وسبب بطلانها، وما يجب على الإنسان أثناء التلبس بتلك العبادات. وأهمها الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. ثم لابد أن يتعلم الفرد مكارم الأخلاق، ومعاملة الجيران والأصدقاء والأهل، وما شاكل ذلك.

وإذا كانت أمتنا اليوم تتجه لإنشاء العديد من الجامعات الإقليمية؛ ليكون هناك استيعاب للأعداد الكثيرة المتزايدة من أبنائنا الطلاب الذين يتعلمون في مختلف مراحل التعليم ـ فهذا عمل عظيم، وتفكير طيب، واتجاه مشكور؛ لأن الأمة المتعلم أبناؤها تخطو إلى المجد، وتسعى للكمال والرقي، خاصة إذا كان

---

(١) سورة محمد ـ من الآية ٤.

العلم مقترنًا بالأخلاق والتحلى بالفضائل الطيبة. والإسلام له الفضل الأكبر فى توجيه الأمة إلى العلم والتعلم؛ ليتسنى لها استخراج ما فى باطن الأرض من كنوز وخيرات، وتسخير قوى الكون لمنفعة الإنسان، وليس هناك اعتراض على ذلك مادام يرتبط بالمصلحة العامة، لكننا نلفت النظر إلى تلك الجامعة الشعبية العظيمة التى أسهمت على مدار التاريخ بالدور الأكبر والنصيب الأعظم فى رقى الإنسانية وتقدمها.. إنها تستوعب طبقات الشعب بلا تفرقة بينهم،. فلنجعل منها مكانًا يتردد فى جنباته العلم، ويدوِّى صوت المعلم يعلم القرآن، أو ينشر الحكمة، أو يدرس كتاب طب، ولا حرج فى هذا؛ لأن المساجد الشاهقة المتعددة الآن يؤدى المسلمون فيها صلاتهم، ثم تُغْلَقُ من خلفهم وتظل جدرانها تنعى من بناها لهذا الهجران ممن حولها.

لقد أصاب المسجد ركود؛ لأننا أغفلنا أروع أدواره، فسقطت رايته بلا مبرر. إن المسجد الذى كان متوائمًا مع ركب الحياة، وعاشت الكلمةُ بين جدرانه تحثُّ على العمل والحضارة، تلك الكَلِمَة ذات الأثر الفَعَّال والتى تقوم على قوة المادة والروح، فعلى المسئولين الآن أن يتجهوا إليه، ويتخذوه مكانًا تربويًا، علمًا بأن الكثير من مساجدنا الأثرية بجوارها مدارس مغلقة الحجرات، مملوءة بالتراب، فى حاجة إلى لفتة كريمة، وعمل جاد من شخص يحمل أمانة المسئولية؛ ليعيد للمكان مجده، وللمسجد رسالته.

إن رسالة المسجد العلمية لاينكرها إلا جاحد، كمن ينكر الشمس فى وسط النهار، ليس على عينيه سحابة، وليس بهما رمد، ولا برأسه صداع. وإن الثورة العلمية التى نبعت من المساجد فى عصر النبى ﷺ، وعصر أصحابه، والتابعين، وعصر النهضة الإسلامية - لأَكْبَرُ شاهد ودليل صادق على أثر المساجد فى النهضة العلمية التى دفعت ركب الإنسانية إلى التقدم والحضارة والازدهار.

ولما كان المسجد جامعة شعبية، يدخله كل أفراد المجتمع للتعلم بلا تقيد

بسن، أو الحصول على شهادة مسبقة، أو رسوم، كذلك لايفرق بين ذكر وأنثى؛ لأنه جاء فى الأثر: «طَلَبُ الِعلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ». وفى صحيح مسلم: أن أسماء بنت يزيد الأنصارية خطيبة نساء العرب ورسولهن إلى رسول الله ﷺ، ـ قد بايعت النبى ﷺ عند مَقْدَمه إلى المدينة، وتلقت عنه الكثير من العلم، وتخرج عليها كثير من التابعين، وكانت ـ رضى الله عنها ـ من أَبْيَنِ الناس وأفصحهم لسانًا، وأجرئهم فى مواطن الحق، حتى دُعيت خطيبة النساء، عمرت بعد رسول الله ﷺ دهرًا طويلا، وحضرت موقعة اليرموك تسقى الجرحَى وتُداويهم، فلما جَدَّ جدُّ المسلمين أخذت عمود خيمتها وانغمرت فى الصفوف تضرب الأعداء حتى صرعت تسعة من الروم.. هذه المرأة أتت النبى ﷺ وهوبين أصحابه فقالت:

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك.. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلـهك. إِنَّا ـ معشر النساء ـ محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم ـ معاشرَ الرجال ـ فُضِّلْتُمْ علينا بالجُمَعِ، والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أَفَنُشَارككم فى هذا الأجر والخير؟».

فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه؟ قالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا. فالتفت النبى ﷺ إليها وقال: «افهمى ـ أيتها المرأة ـ وأَعْلِمِى مَنْ خَلفك من النساء أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته ـ يعدل ذلك كله».

ولقد انصرفت بعد سماع ذلك وهى تهلل وتكبر، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ﷺ، ففرحن بذلك.

وإذا كانت المرأة فى صدر الإسلام قد عز عليها أن يكون وقت الرسول ﷺ كله للرجال دون النساء، فسألته أن يجعل لهن يومًا فى الأسبوع، فأجابهن إلى طلبهن، فإذا كان اليوم المخصص لهن جلس إليهن رسول الله ﷺ وأقبل عليهن، يجيب السائلة، ويهدى الحائرة، ويرشد المرأة إلى النهج القويم. وإذا كنا نحن بصدد عطاء المسجد العلم لجميع أفراد الجنس البشرى بلا تفرقه بين ذكر وأنثى ووعينا حديث أسماء الأنصارية ـ فجدير بنا أن نتذكر أن أول قلب خفق بالإسلام وتألق بنوره هو قلب امرأة فاضلة نُقِشَ اسمها بحروف من نور على جبين الزمن، إنها السيدة الفاضلة ـ أُم المؤمنين الأولى ـ خديجة بنت خُوَيْلد، التى لها من زكاء الحَسَب وبُعْد الرأى، ما يجعلها فى مقدمة النساء. ولقد كانت مبعث غبطة للنبى ﷺ لسبقها للإسلام وعدم التردد، بل قالت لزوجها: إنك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحمل الْكَلَّ، وتُكْسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق.

وهناك السيدة زينب بنت الإمام على، والسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، نِعْمَ المثل الرائد للمرأة فى العلم والأدب والخطابة. وإذا كان الإسلام بسماحة تعاليمه طَهَّرَ نفس المرأة من نزعة الحقد والغل، فإنه كذلك حَسَرَ عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاوة الأباطيل بما شرع وبَيَّنَ من أمور فى منهاجه الكريم، وهَدْىِ نبيه العظيم واستلهمت المرأة ذلك عبر التاريخ من المسجد الجامع الذى كانت تتردد عليه مصلية متفقهة فى الدين متعلمة.

ولقد كان للمرأة لحاق بالرجل فى شتى فنون العلم والأدب، والمرأة المسلمة التى تعلمت فى المسجد امتازت بالصدق فى العلم، والأمانة فى الرواية. جاء فى طبقات الشافعية أن الحافظ بن عساكر ـ المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو من أوثق رواة الحديث، حتى لقبوه بحافظ الأمة ـ كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء! وما لنا نذهب بعيداً وزوجات رسول الله ﷺ أَذْعَنَ العلمَ، وأَفَضْنَ فى نشر الدين، وكانت السيدة عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ والسيدة حفصة، تعرفان القراءة والكتابة، وكانت الشّفاء

بنت عبد الله إحدى ذوات الرأى والقول الفصل، وهى من بنى عدى بن كعب، وممن سبقن للإسلام بمكة، وهاجرت إلى المدينة، وهذه كانت تجيد القراءة والكتابة، وقد علمت السيدة حفصة، رضى الله عنها.

لقد نضرت المرأة جوانب الأدب العربى، وأضاءت مذاهبه، ورققت مشاربه، وزكت فنونه بما أثمرت قريحتها، ثم هى فى العلوم الأخرى برزت فيها ولم تتخلف فى أى فن من الفنون، متجملة فى ذلك بالخُلُق والعفَّة وعدم الابتذال؛ ذلك لأن المرأة العاملة المتعلمة هى التى تحسن تربية أولادها، رجال المستقبل، وعُمَّار الكون، وأسس التقدم، وبُنَاة الحضارة، فهى بعلمها تعلم؛ لأن الأم هى المدرسة الأولى للطفل، وعلى هذا فإن الإسلام ـ ومدرسته المسجد ـ لم يضننا على المرأة كما لم يضننا على الرجل بالعلم النافع الذى يهذب القلب ويسمو بالروح.

على أن الإسلام قد أعطى هذا للمرأة؛ لتكون شريكة للرجل فى العلم وتحصيله، ولكنه أخذ على المرأة ألاَّ تتشبه بالرجل فيما هو خاص به، ومن ألزم أموره، كزيِّه، وهيئته، فى الجلوس، والمشى، والكلام، وما شَاكَلَ ذلك من الأمور الخاصة بالرجال؛ ذلك لأن رسول الله ﷺ قد لَعَنَ المسترجلات من النساء، كما لعن المخنثين من الرجال، أما تشبهها بالرجل فى علمه ورأيه الصواب فأمر محمود، وإذا كانت الجامعات والمدارس فتحت أبوابها للشباب والفتيات، وليس هناك مكان مخصص للفتيات فى دور العلم، فليس العيب فى الإسلام، وإنما العيب فى التطبيق، وكذلك المواصلات العامة، وقِسْ على ذلك ما شابه ذلك، فإن العيب كما قلت فى التطبيق، ولو أننا رجعنا إلى الإسلام وطريقته فى رسم المنهج وتحديد الخطة للحصول على العلم لعرفنا أننا إنْ طبقنا أسلوبه من الفصل بين الجنسين لسعدت الأمة، ثم هناك منهج لهذا ومنهج لتلك، أو يدرس المنهج موحدًا، المهم أن يكون هناك فصل بين الجنسين، مع تحديد المركبات لكل جنس؛ لأنه ـ حتى فى المسجد الذى جاء فيه: «لا تمنعوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ الله» ـ جاء فى الأثر أن أفضل صفوف الرجال أولها، وأفضل

صفوف النساء آخرها، مع الفصل بين الجنسين بالصبيان الذين لم يبلغوا الحلم. إن الإسلام الذى يعمل على صقل العقل بالعلم يعمل كذلك على صقل القلب بالطهارة، وغسل النفس من الوساوس الشيطانية. ومَنْ يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدين.

ألا فليتنبه عقلاء الأمة، وليعملوا على تجديد رسالة المسجد، وإعادة الحياة إليه كجامعة شعبية، ومعهد علم، ومكان عبادة تُؤَدَّى فيه الصلوات الجامعة التى تهذب النفس، وتسمو بالروح، وتنزع الغل والحقد والبغضاء من نفس مؤديها، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

هذا، وكفى العلم منزلة أنَّ أول الآيات التى نزلت من كتاب ربنا تُرْشِدُ إليه وتُوَجِّهُ للأخذ بأسبابه هى قول الحق سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

وكفى المسجد فخرًا أنه السَّبَّاقُ فى مضمار العلم والدعوة إليه، والحث على تحصيله من أخص خصائصه. كما أن العلم هو أول شىء تعلمه آدم عليه السلام تلقيا من الله سبحانه ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3].

إن بذل الجهد الآن مطلوب من كل شخص على قدر طاقته، وخاصة أننا فى معركة البناء نحتاج إلى مداد العلماء ودماء الشهداء، وعرق الحياة، وقوة العزمات، على أساس فكر واضح مستنير يتجه إلى تفجير الطاقات الروحية الأصيلة للأمة الإسلامية، وتوجيه تلك الطاقات بكل كفاءة وإخلاص، من أجل

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية ٤٥.
(٢) سورة العلَق ـ الآيات من ١ ـ ٥.
(٣) سورة البقرة ـ من الآية ٣١.

تحقيق النظم الإسلامية، ولن يتأتى ذلك إلا لمن تربوا على مائدة الإسلام، وفى رحاب المسجد، الذى فى قدرته أن يقدم خدمات متعددة وفقًا لمتطلبات الحى أو البيئة، وهذا يختلف من حى لآخر، ومن بيئة لأخرى.

لقد حث نبى الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الغُدُوِّ إلى المسجد؛ لأنه مصدر الإشعاع الفكرى السليم، فيقول فى الحديث الذى رواه مسلم: «أفَلاَ يغدو أَحَدُكُم كُلَّ يَوْمٍ إلى المسْجِد فَيَتعَلَّمُ، أو فَيَقْرأُ آيتين منْ كتَاب الله عز وجل، خَيْرٌ له مِنْ نَاقَتَيْنِ، وثلاثٌ خيرٌ مِنْ ثَلاثٍ، وأربعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ».

وفى حديث رواه ابن ماجه، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ جَاءَ مسجدِي هَذَا لَمْ يَأْته إلاَّ لِخير يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المجاهِدِ فى سَبِيلِ الله ،ومَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فهو بمنزلةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إلى مَتَاعِ غَيْرِه».

ونقف أمام تلك النصوص نتبين منها أن المسجد كان مركزًا للتعليم والتوجيه إلى كل خير، والتفقه فى الدين، والرسول ﷺ بينما هو فى المسجد جالس والناس معه إذْ أقبل ثلاثة نَفَرٍ، فأقبل اثنان إلى الرسول ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «ألاَ أُخْبِرُكُمْ عَنَ النَّفَرِ الثَّلاثَة؟ فَأَمَّا أَحَدُهُمْ فَأوى إلى الله فَآوَاهُ الله، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ. وأَمَّا الثالثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ».

لقد كان المسلمون يتدارسون القرآن، ويتعرفون على الحلال والحرام فى المساجد، والحلال هو الشىء المباح الذى أُذنَ الشرع فى فَعْله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1].

(١) سورة الأعراف - من الآية ٣٢.

والحرام هو الشيء الذى نهى الشارع عن فعله نهيًا جازمًا، وهو يتسم بالشمول، فليس هناك شيء حرام على الأسود حلال للأبيض، لا، بل ليس هناك خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له، كلا، إن الله رب الجميع، والشرع سيد الجميع، ومِنْ هنا كان المسلمون يتدارسون ذلك، ويتعرفون على المبادئ التى قررها الإسلام. ومن القواعد المعروفة أنه ما أدَّى إلى الحرام فهو حرام، وما كان نَفْعُهُ أكبر فهو من الطيبات الحلال، وصدق الله العظيم إِذْ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ﴾[1].

إن العقل هبة من الله، ينميه التفكير، ويغنيه العلم، وتقوى الله والخشية منه هى التى توصل إلى الفهم السليم لقضايا الإنسانية، ويتجاوب الفرد بسبب ذلك مع أبناء جنسه فى أداء الواجب قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾[2].

* * *



(١) سورة المائدة ـ من الآية ٤.

(٢) سورة البقرة ـ من الآية ٢٨٢.

الفصل الثالث

مساجد لها الريادة

١ ـ المسجد الحرام

هو أول مسجد وُضِعَ فى الأرض لعبادة الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[١].

وفى الصحيحين أَنَّ أَبا ذر سأل النبى ﷺ عن أول مسجد وُضِعَ على الأرض، قال النبى ﷺ: المسْجدُ الحَرام ـ قال أَبُو ذَر: ثم أَىّ؟ قال: المسْجدُ الأَقْصَى. قال: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ عَامًا. ثم جعل الأَرْضَ لك مسجداً، فحيثما أدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَإِنَّ الفَضْلَ فيه.

قالت اليهود: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء، وفى الأرض المقدسة، فردَّ الله عليهم.

١ ـ بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

نبه بكونه أولَ مُتَعَبَّدٍ ـ بفتح الباء المشددة ـ على أنه أفضل من غيره.

٢ ـ وبقوله: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[٣]. وليس ذلك فى بيت المقدس.

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٩٦.
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ٩٦.
(٣) سورة آل عمران ـ من الآية ٩٧.

٣ ـ وبقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(١) أى: وليس ذلك فى بيت المقدس.

٤ ـ وبقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٢).

وليس ذلك فى بيت المقدس.

وقد سميت «بكّة» لازدحام الناس فى الطواف، يقال: بَكَّ القوم، أى: ازدحموا ـ وتُسَمَّى «مكّة» أم القرى ـ كذلك ـ قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٣). والبلد الأمين، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾(٤).

وصفت بالأمين لأمان من دخلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(٥).

وهى البيت الحرام، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾(٦).

ولقد كتب اللّه لمكة بعد بناء الكعبة المجد والخلود، فقد أصبحت مقصد الحجاج من لحظة أنْ أَذَّنَ إبراهيم بأمر ربه عندما أمره الله قائلا له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾(٧).

ومن لحظتها والإنسانية تفد فى موكب مهيب من شتى بقاع الدنيا إلى هذه الرحاب الطاهرة، يؤدون مناسكهم، ويتبادلون المعلومات، ويشهدون منافع

(١) و (٢) سورة آل عمران ـ من الآية ٩٧.
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ٩٢.
(٤) سورة التين ـ الآية ٣.
(٥) سورة العنكبوت ـ من الآية ٦٧.
(٦) سورة المائدة ـ من الآية ٩٧.
(٧) سورة الحج ـ الآية ٢٧ وصدر الآية ٢٨.

لهم. وفى هذا الجو الطاهر والحرم الآمِن لارَفَثَ ولا فُسوق ولا جدال، بل الكل فى جو كله صفاء وَأخُوَّة ومحبة. ذابت الفوارق، وغابت المناصب، وأصبح الشعار: نحن جميعًا إخْوَة، الأب آدم، والأم حواء، والأصل من تراب وكرم بنفخة روحية من رب العالمين.

وكانت مكة تقع فى أجدب بقعة فى الجزيرة العربية، ولكنها جذبت الإنسانية لوجود الكعبة فيها؛ ولذلك أصبحت مركزًا للحياة الدينية، كما أصبحت مركزًا للنشاط الاقتصادى والتجارى، وتدفقت على مكة الأموال من كافة الأرجاء، ففيها انفتاح عالمى، وليس فيها إغلاق، كذلك نهجت قريش نهجًا قويمًا، وكانت دار الندوة الواقعة على مقربة من الكعبة تشبه البرلمانات المعاصرة، كانت قريش تتشاور فيها فى مهام أمورها، وتعمل على تحقيق السلام فى أرجاء الجزيرة العربية وحفظ التوازن بين القبائل، ولم تقحم نفسها فى أى صراع، وقد اهتمت بسوق عكاظ الذى كان الجميع يتبادلون فيه ألوان الثقافة والنظم الاجتماعية، وفيه كان يظهر النوابغ من الشعراء والخطباء، وتَداوُل الآراء العلمية فى كل مجال.

فالكعبة على مر العصور كانت مركز إشعاع، حتى عندما جثمت الوثنية حولها كان الفكر يتوقد فى أذهان الحنفاء الذين رفضوا الوثنية وانتبذوها، واتجهوا بفكرهم يتأملون فى ملكوت السموات والأرض، ويذكرون قومهم بهذا.

وفى مكة جاء عن ابن عباس - رضى اللّه عنه - قال: «لما أهبط اللّه عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض رأى فيها سعة ولم يَرَ فيها أحَدًا غيره. قال: يارب، أَمَا لأرضك هذه عامِرٌ يُسَبِّحُكَ وَيُقَدِّسَ لك فيها غيرى؟ قال: سأجعل فيها من ذريتك من يسبح لى ويحمدنى ويقدس لى، وسأجعل فيها بيوتًا تُرْفَعُ بذكرى، ويُسَبِّحُ فيها خَلقى، وسأبنى لك فيها بيتًا أخصه بكرامتى، وأوثره على بيوت الأرض كلها، أضعه فى البقعة التى اخترتها لنفسى، فإنى اخترتُ مكانه يوم خَلَقْتُ السموات والأرضَ، ومن قبل ذلك كان بعينى - أى تحت رعايتى وحفظى - ولست أسكنه، وليس ينبغى أن أسكن البيوت، ولكن على

كرسى البهاء والكبرياء والجبروت، وليس ينبغى لأحد أن يعلم علمى، ولا يبلغ كنه شأنى، اجعله يا آدم لك ولمن بَعْدَكَ حَرَمًا آمنًا من كل ملك جبار، مهما خَوَّلته، وبطن مكة جوارى دون خلقى، فأنا الله ذُو[1] بكَّة، عُمَّارُهَا وزُوَّارُها وَفْدى وأضيافى. أعمره بأهل السمٰوات والأرض يأتونه شُعْثًا غُبْرًا، وعلى كُل ضَامرٍ يأتيه من كل فَجٍّ عميق، فمن قَصَدَهُ لا يريد غيرى فقد زَارَنى وضافنى، ووفدَ إلىَّ فَنَزَلَ بى، وحَقٌّ عَلَىَّ أن أُتْحِفَهُ بكرامتى، وفرض على الكريم أن يُكْرِمَ ضيفه، وأن يسعفه بحاجته، تعمره يا آدم مادُمْتَ حَيا، ثم تعمره بعدك الأُمَمُ والقرون والأنبياء من ولدك، أُمَّةٌ بعد أمة. ونَبِىٌّ بعد نبى، حتى ينتهى ذلك إلى نبى من ولدك، فهو خاتم الأنبياء، فأَجْعَلُهُ من عُمَّارِهِ ووكلائه، يكون أمينًا عليه مادام حيًا، فإذا انقلب إلىَّ وجدنى قد ذخرت له أفضل المنازل، أجعل اسمى فى ذلك البيت، ويجدده نبى من ولدك يكون قبل هذا النبى - وهو أبوه إبراهيم - أرفع له قواعده، وأقضى على يديه عمارته، وأنيط له سقايته - أى أعهد إليه - وأُريه حرمه وحِلَّه ومواقفه، وأعلمه مناسكه ومشاعره، وأجعله أُمَّة قانتًا وحده، داعيًا إلى سبيلى، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم».

هذا، ولما أوصى الله بالإسلام إلى رسول الله ﷺ وبدأ الدعوة إلى أهل مكة، صدوه وآذوه حتى هاجر من مكة إلى المدينة، ولقد تعلق قلب المسلمين وعواطفهم بمكة وماحولها، حتى إن رسول الله ﷺ يوم أن هاجر من مكة إلى المدينة، عَبَّرَ عن مدى الألم الذى يعتمل فى نفسه بتلك النظرة الحانية الأخيرة التى ألقاها على مكة وهو على مشارفها بقلب واله وفؤاد حزين وقال: «والله إنِّى لأَخْرُجُ مِنْك وإنى لأَعْلَمُ أَنَّك أَحَبُّ بِلاَدِ الله إلى الله، وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ أَخرجونِى مِنْكِ ما خَرَجْتُ».

هذه الكلمات التى امتزجت بالدمع، واقترنت باللوعة والأسى، تُعبر عن مدى تعلق الرسول ﷺ بمكة وبيتها العتيق... إنها ملاعب الصبا، ومقر

(١) ذو: صاحب، وبكة: مكة.

الذكريات، وموطن الآباء، وأول وحى الله هبط عليه فى غارها العظيم.. والسيدة عائشة تقول: لولا الهجرة لسكنتُ مكّةَ، فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة.

إنها كلمات تعبر عن شوق لهذا الحرم الطاهر، والبيت الآمن، ومازال إلى اليوم، قلوب المسلمين يعتمل فيها الشوق، وفى نفوسهم الحنين لهذا البيت الذى دعانا لزيارته خليل الله إبراهيم عليه السلام، الذى رَفَعَ قواعده، وساعَدَهُ ولده إسماعيل. ولقد عاد المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ وفتحوا مكة بلا حرب ولا إراقة دماء، وأَمَّنَ أهلها فى ظل دعوة السلام، هذا، وكان من عادة النبى ﷺ أن يقول عند دخوله مكة: «اللَّهُمَّ إن البَلَدَ بَلَدُكَ، والبيتَ بَيْتُكَ، جِئْتُكَ أَطْلُبُ رَحْمَتَكَ، وأَرُومُ[1] طَاعَتَكَ، مُتَّبِعًا لأَمْرِكَ، رَاضِيًا بِقَدَرِكَ، مُبَلِّغًا لأَمْرِكَ. أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المُضْطَرِّ إليكَ، المشْفِقِ مِنْ عَذَابِكَ أَنْ تَتَقَبَّلَنِى، وأَنْ تَتَجَاوَزَ عَنِّى بِرَحْمَتِكَ، وأَنْ تُدْخِلَنِى جَنَّتَكَ».

هذا، وقد ترك الرسولُ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ بمكة يُعَلِّمُ الناس ويفقههم فى الدين، ويبين لهم الحلال والحرام. كما كان عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - يجلس بفناء المسجد الحرام يفسر القرآن الكريم، ويرشد الناس إلى مكارم الأخلاق، ويفقههم فى أمور الدين، وشهد الحرم المكى حلقات علم قبل أن تُبنى المدارس، أو تُوضَع المناهج، أو يكون هناك تخطيط منهجى.

فالحلقات أقدم ما عرف الناس فى تلقى العلم، ولقد نبعت من المساجد، وأهمها المسجد الحرام، الذى هو الأول فى الوجود، ولقد تخرج فى حلقات العلم التى عُقدت فى المسجد الحرام بمكة - وعلى يد هؤلاء الصحابة الأجلاَّء - كثيرٌ جدًا من خِيرة العلماء، ومن أشهرهم: مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبى رباح، وطاووس بن كيسان. واستمرت تلك المدرسة تخرج طبقة بعد طبقة، وقد ذاع صيتها، واشتهر أمرها، ووفد عليها الكثير من طلاب العلم وعشاق

---

(١) أَرُوم: أطلب وأبتغى.

المعرفة، وقد أخذ عنها الإمام الشافعى صاحب المذهب المشهور عِلْمَهُ الذى ملأ به طباق الأرض، وكان من أساتذته سفيان بن عُيَيْنَة، ومسلم بن خالد الزنجى.

إن الشافعى يُعَدُّ من أئمة الفقه وأصحاب الرأى، وقد ذاع صيته، واشتهر أمره، وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع - ينتهى نسبه إلى عدنان - ويلتقى مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف. ، وكان مولده بغزة سنة ١٥٠ هـ، وهى السنة التى مات فيها الإمام أبو حنيفة، حتى قال بعض العلماء: وُلد إمامٌ ومَاتَ إمام، وبعد أن بلغ من العمر سنتين حملته أمه إلى مكة لينشأ بين قومه، وبدأ حياته العلمية بتعلم القرآن، فحفظه وهو ابن سبع سنين، ثم أقبل على اللغة العربية، ومعرفة أيام العرب، والشعر، فبرع فيها كلها، ثم أقبل على الحديث والفقه.

يقول ابن خَلِّكَان: «كان الشافعىُّ كثيرَ المناقب، جَمَّ المَفَاخِرِ، منقطع القرين، اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله عز وجل وسُنة رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة - رضى الله عنهم - وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء، وغير ذلك من معرفة كلام العرب، واللغة العربية، والشعر، حتى إن الأصمعى مع جلالة قدره فى هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهُذَلِيِّين، وذلك مالم يجتمع فى غيره». هذا رأى رجل له قَدْرُهُ فى الحكم على قَدْر هذا العالم الجليل. أما أحمد بن حنبل فقد سأله ابنه عبد الله: أى رجل كان الشافعى، فإنى سمعتُك تكثر الدعاء له؟ فقال: يابنى، كان الشافعى كالعافية للبدن، وكالشمس للدنيا، هل لهذَيْن مِنْ خَلَفٍ أو عِوَض عنهما؟ وهذه شهادة إمام له وزنه فى المجال العلمى.

إننى قد سقت هذا ليتبين لنا أن مدرسة مكة - ومكانها الحرم الجامع - قد أنجبت علماء، وخَرَّجَتْ رجالا حملوا مشاعل الهداية ونور العلم والمعرفة إلى الناس أجمعين. وطاف الشافعى فى الأرض وساح فى رحابها يبز العلماء ويفوقهم، حتى انتهى به المطاف فى مصر، التى كانت مثوى لجسمانه الطاهر، وما زالت مدرسته للآن تشهد بطول الباع له، وتشهد الدنيا للمدرسة التى تخرج

فيها بالعلم والفضل، والامتياز الخلقى، والأدب الجم، ولا يتوافر ذلك فى أى مدرسة أخرى مهما كان أساتذتها والمناهج التى تدرس فيها.

٢ - المسجد النبوى

أول المساجد - بعد الحرم - الذى له الريادة فى نشر العلم هو الحرم النبوى.. والمساجد - كما قدمنا - هى صومعة الناسك، ومدرسة الدارس، يعمرها الزهاد بالعبادة، والمتصوفون بالذكر، والعلماء بحلقات العلم والدرس، وتبادل الآراء حول المسائل الفقهية والأدبية والعلمية.

وفى المدينة التى يقول فيها رسول الله ﷺ: المدينةُ قُبَّةُ الإِسْلاَمِ، ودَارُ الإيمانِ، وأَرْضُ الهِجْرَة، ومُبَوَّأ - أَىْ مكان - نُزول الحلال والحرام». هاجر إليها رسول الله ﷺ عندما اضطُهد فى مكة وحُوصِرَت الدعوة، وأوذىَ الأتباع، وكانت تسمى - قبل الهجرة - «يثرب». يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾[1].

يقول نبى الإسلام، صلوات الله وسلامه عليه، فيما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه -: «أُمِرْتُ بِقَرْيَة تأكل القرَى يَقولُونَ يَثْرِبَ، وَهِىَ الْمدِينَةُ، تَنْفِى النَّاسَ كما يَنْفِى الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد».

ولما خَرَجَ رسول الله ﷺ مُهَاجِرًا قال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَخْرَجْتَنِى مَنْ أَحَبِّ أَرْضِكَ إِلَىَّ فَأَنْزِلْنِى أَحَبَّ أَرْضٍ إِلَيْكَ». وَقد أراد الله لأهل المدينة خيرًا، فهاجر إليهم المصطفى ﷺ، وقبلَ الهجرة بعام أرسلَ إليهم السفير الأول فى الإسلام «مصعب بن عمير»، الشاب التقى الزاهد، العالم اللبيب الأريب، الفاهم لظروف البيئة، الموصول القلب بالله، فَنَشَر العلم، وبَلَّغَ رسالة رسول الله ﷺ إلى أهل المدينة الذين تقبلوا هدى الله بقبول حَسَن، فجزاهم الله خيرًا، واختار النبى ﷺ ديارهم؛ لتكون بعد هجرته مهبط ما تبقى من وحى الله، وإليها تُشَدُّ الرِّحَال تبركًا وزيارة، ومقر الخلفاء الراشدين، وعاصمة الإسلام.

---

(١) سورة الأحزاب - من الآية ١٣.

وقد أجمع المورخون على أن الرسول ﷺ وهو فى الطريق من مكة - وعلى بعد ميلين من المدينة، وعند قرية «قُبَاء» - بنى النبى ﷺ بها أول مسجد فى الإسلام، الذى يقول فيه الحق سبحانه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[1].

والرسول ﷺ هو أول من وَضَع حَجَرًا فى قبلته، ثم تبعه أبو بكر، فعمر، وكان النبى ﷺ بعد أن استقر به المقام فى المدينة يأتى مسجد «قباء» كل سبت راكبًا أو ماشيًا، ويصلى فيه ركعتين.

وبعد أن أسس رسول الله ﷺ مسجد قُبَاء وانتقل إلى المدينة أسس مسجده على مساحة من الأرض طولها ٣٥ مترًا، عرضها ٣٠ مترًا، فمساحة المسجد النبوى وقت البناء (١٠٥٠) ألف متر وخمسون، وكانت هذه القطعة قد بَرَكَتْ فيها ناقة رسول الله ﷺ، وكانت مربدًا لسهل وسهيل، غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة، فساوم الرسول ﷺ عليها، فقال أسعد: بل نهبها لك يا رسول الله، فأَبَى، وقد ابتاعها منهما بعشرة دنانير. وكان فى هذا المكان نخل وبعض قبور المشركين، فأمر بالنخيل فَقُطِعَ، وبقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فَسُوِّيَتْ، ثم أخذ فى البناء، وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة بنفسه، ويشارك المؤمنين فى العمل والبناء، حتى قال الصحابة.

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِىُّ يَعْمَلُ   لذَاكَ مِنَّا العَمَلُ الْمُضَلِّلُ

فارتجز الجميع ورددوا - ومعهم الحبيب المصطفى:

اللَّهُمْ لا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ   فأغفِر اللَّهُمَّ للأنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

وبنى أساس المسجد بالحجارة، والجدار باللَّبِنِ - أى الطوب الأخضر - وجعل عُمُده جذوع النخل، وسقفه بالجريد، وطوال مدة البناء التى استغرقت سبعة

(١) سورة التوبة - من الآية ١٠٨.

أشْهُرٍ قضاها النبى ﷺ فى ضيافة أبى أيوب الأنصارى. هذا، ولم يتخذ الرسول ﷺ منبرًا فى أول الأمر، بل كان يقف إلى جانب جذع من جذوع النخل المسقوف عليها المسجد، ثم صنع المنبر فيما بعد، وكان يتكون من درجتين ومقعد، وكان النبى ﷺ يجلس على الدرجة العليا (المقعد) ويضع قدميه على الدرجة الثانية، فلما تولى الخلافة أبو بكر الصديق جلس على الدرجة الثانية ووضع قدميه على الدرجة الأولى، ولما تولى عمر بن الخطاب كان يجلس على الدرجة الأولى ويضع قدميه على الأرض.

هذا وقد سُئل رسول الله ﷺ عن المسجد الذى أُسِّسَ على التقوى، فقال: هو مسجدى - أى مسجد المدينة - ذلك لأنه المسجد الجامع الذى خَرَّجَ الرجال الأبطال وعلم الدنيا بهديه، وبين جنباته ترددت الكلمات المشرقة المضيئة التى بهديها استهدى الناس، وأشرقت الأرض بنور العلم والمعرفة. فى هذا المسجد نزل الوحى من السماء يهدى للتى هى أقوم، وكذا أكثر آيات التشريع والأحداث التاريخية الهامة فى صدر الإسلام، وأحاديث رسول الله ﷺ التى كانت نبراسًا وضياءً أكثرها قيل فى المدينة، وأكابر الصحابة شاهدوا - بعد ماسمعوا - رسول الله ﷺ يعمل ويقول، والقرآن يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[1].

لهذا كانت مدرسة المدينة - ومقرها المسجد الجامع - أغزر علمًا وأبعد شهرة؛ ذلك لأن كثيرًا من الصحابة تخصص للحياة العلمية، وبعض أصحابه أضاف إلى العلم أن قام بدراسة وتعلم بعض اللغات الحية كالسريانية والعبرية، ومن هؤلاء زيد بن ثابت الذى كان ضليعًا فى فهم تعاليم الإسلام، حتى قال سليمان بن يسار: ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدًا فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وكان ذا عقل فى الرياضيات. ولى قسم

(١) سورة الأحزاب - من الآية ٢١.

الغنائم فى اليرموك، وكان ابن عباس ـ مع علو قدره ـ يأخذ بركابه، ويقول: هكذا أُمِرْنَا أن نفعل مع علمائنا.

وزيد هو: زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى الخزرجى، وأمه النوار بنت مالك من بنى النجار، فهو ينتهى نسبه من قبل الأبوين إلى بنى النجار، أخوال النبى ﷺ، وُلد بيثرب، وبها نشأ، وعاش بين أهله وعشيرته، وفى طفولته الأولى شَبَّ خلافٌ بين الأوس والخزرج، وقُتِلَ أبوه فى حرب «بعاث» التى وقعت بين الأَوْس والخزرج قبل هجرة النبى ﷺ بخمس سنين، وكان سِنُّهُ عند هجرة النبى ﷺ أحد عشر عامًا، حفظ ما نزل من القرآن، وكان النبى ﷺ يعجب بقراءته وخطه؛ لذلك اتخذه مِنْ كُتَّابِ الوحى، وأمره أن يتعلم لغة اليهود. وقد حَدَّثَ عن نفسه فقال: أُتِىَ بى النبى ﷺ عند مقدمه المدينة، فقيل له: هذا من بنى النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأتُ عليه فأعجبه ذلك، فقال: تَعَلَّمْ كِتَابَ يَهُودٍ فإنى لا آمَنُهُم عَلَى كِتَابِى، ففعلتُ، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له.

وقيل أيضًا: إن النبى ﷺ قال له: إنى أكتب إلى قومٍ فأخاف أن يزيدوا أو ينقصوا، فَتَعَلَّمِ السريانية، فتعلمها فى سبعة عشر يومًا، هذا هو أحد التلاميذ النجباء الذين تخرجوا فى مدرسة المدينة الأولى ـ أعنى المسجد ـ على يد المعلم العظيم.

لقد كان زيد موهوبًا، قوى الذاكرة، خصيبَ الوعى، لقد اختاره النبى الكريم ليكون ترجمانًا له، وكاتبَ الوحى، ثم جامعًا للقرآن الكريم بعد انتقال النبى ﷺ للرفيق الأعلى، ومع هذا الذكاء والفهم، كان شجاعًا لايهاب الحروب، خرج مع رسول الله ﷺ فى مواقع حربية كثيرة.. وعاش زيد على سَمْتٍ خاص فى خُلُقه، وكان من أَفْكَهِ الناس إذا خلا بأصدقائه وأهله، ومن أَوْقَرِ الناس فى مجالسه مع أنداده . كان مرموق المكانة؛ لذلك نرى ابن عباس ـ وهو ابن عم رسول الله ﷺ ـ يمسك له الركاب.

رُمِىَ يوم اليمامة بسهم، وكتبَ الله له النجاة، وكان من أعلم الناس بالفرائض وتوزيعها. وفى الحديث عن النبى ﷺ: «أَفْرَضُ أُمَّتِى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ». لقد قام بجمع القرآن فى خلافة أبى بكر، وتخرج على يده الكثيرون، وانتقل إلى الرفيق الأعلى سنة خمس وأربعين هجرية، وقال أبو هريرة عند موته: «اليوم مات خير هذه الأمة» ورثاه حسان بن ثابت بقوله:

فَمَنْ لِلْقَوَافِى بَعْدَ حَسَّان وَابْنِهِ ... ومَنْ لِلْمعَانِى بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابتِ

هذا الرائد من الرواد الأوائل الذين تعلموا واستفادوا وتركوا لنا كنزًا كبيرًا من العلم والمعرفة ما زالت الإنسانية تسعد به إلى اليوم من تلاميذ المسجد النبوى.

وإذا كنا طوفنا فى هذه الحديقة الفيحاء واقتطفنا منها تلك الزهرة اليانعة فلنعد إلى أصل تلك المدرسة وقائدها العظيم، إنه سيد الخلق محمد بن عبد اللّه، نبى اللّه ورسوله الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وفيه يقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

كَان هذا النبى العظيم ـ وما زال، وسيظل إلى مايشاء اللّه ـ يغذى العقول والأفكار بالعلم والمعرفة؛ لأن الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ نقلوا سيرته بدقة وأمانة إلى الإنسانية، وأصبحت سُنَّتُهُ سيرة من ميراث البشرية، حتى يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عليها.

ومن سيرته المشرفة ما عهد فيه من حِلْمٍ ولين ورفق وسعة صدر، يدل على ذلك هذا الحديث الذى رواه مسلم عن أَنَسٍ، فى حديث الأعرابى الذى بال فى المسجد: «إِنَّ هَذِهِ المسَاجِدَ لا تصلُح لِشَىْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ القَذَر، إِنَّمَا هِىَ

(١) سورة المائدة ـ آخر الآية ١٥ وكل الآية ١٦.

لذكْرِ الله، وَالصَّلاَة، وَقِرَاءَة القُرآن». وكأنه أراد أن يوجه الدعاة أن يكونوا على مستوى المسئولية، وأن يكونوا نماذج طيبة تتمتع بسعة الصدر، والأخذ بيد المسيء حتى يصل الجميع إلى بر النجاة؛ لهذا كان الصحابة يجتمعون فى المسجد يتدارسون ميراث النبوة، وهو ما حدده الرسول ﷺ: «تَركْتُ فِيكُمْ ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِى أَبَدًا: كِتَابَ الله، وَسُنَّتِى».

ولقد رَوَى الطبرانى أنَّ أبا هريرة - رضى اللّه عنه - مَرَّ بسوق المدينة، فوقف وقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم!؟ قالوا: وما ذَاكَ يا أبا هريرة؟ قال: ذَاكَ مِيرَاثُ النَّبِىِّ ﷺ يُقَسَّمُ وأنتم هَا هُنَا!! ألا تَذْهَبُونَ فتأخذوا نَصِيبكُم مِنْه؟ قالوا: وأَيْنَ هُوَ؟ قال: فى المسجد، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لم يبرح مكانه حتى رجعوا، فقال لهم: مَالَكُمْ؟ فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا فِيه فَلَمْ نَرَ شَيْئًا يُقَسَّمُ. فَقَالَ لهم أبو هريرة، - رضى الله عنه -: أَمَارَأَيْتُمْ فى المَسْجِدِ أَحَدًا؟ قالوا: بلى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وقومًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ، وقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الحلاَلَ وَالْحرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْحكُمْ، فَهذَا مِيرَاثُ محمد، ﷺ!

واتخذ النبى ﷺ مسجده مكانًا للتعليم والتفقه فى الدين؛ ولذلك ورد الحث على إطالة المُكْث فى المسجد إنْ لم تكن هناك حاجة تدعو الفرد للانصراف، كالسَّعْى على المعيشة، أو قضاء مصالح أخرى؛ بمعنى أن وقت فراغ الإنسان يقضيه فى المسجد؛ ولذا ورد فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أَدُلُّكُمْ عَلَى ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ به الدَّرَجَات؟ قَالُوا: بَلَى يَارَسُولَ الله. قَالَ: إسْبَاغُ الوَضُوء عَلَى المكَاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَة بَعْدَ الصَّلاَة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ».

وجاء فى حديث آخر: «إنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - ضَمِنَ لِمَنْ كَانَت المسَاجِدُ بَيْتَهُ الأَمْنَ وَالْجَوَازَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» وهذا الخير الذى أعده الله لروَّاد المساجد يكثر لمن أنهى أعماله، ودبر شئون معيشته، وقضى مصالح أهله، ثم أمضى وقت فراغه فى المسجد والاعتكاف فيه؛ لأن المساجد من أشرف بقاع الأرض،

(١) ذو: صاحب وبكة: مكة.

حسبما ما ورد فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم: «أَحَبُّ البلادِ إلى الله تَعالَى مَساجدهَا، وأَبْغَضُ البلادِ إلى الله تَعالى أسْوَاقُها»؛ لأن فى المَسجد ذكر الله، ومذاكرة الحلال والحرام، أما الأسواق ففيها الكذب والغش والخداع، إلاَّ مَنْ عصم الله والتزم بخُلق دينه.

ويقول الداعية الأول - رسول الله ﷺ - فى حديث شريف رواه الإمام الترمذى: «سَبْعَة يُظلُّهُمُ اللهُ فى ظلِّه يَوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّهُ: إمَامٌ عَادلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فى عبَادَة الله، ورجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالْمَسَاجد، ورَجُلاَن تَحَابَّا فى الله، اجْتَمَعَا عليه وَافْتَرقَا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصب وجَمَال فَقَالَ: إنِّى أَخَافُ الله، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خَاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَة فَأَخفَاهَا، حَتَّى لا تَعْلَمُ شمَالُه ما أَنْفَقَتْ يَمينُهُ». هؤلاء من الذين رضى الله عنهم فرَضُوا عنه، أعمالهم طيبة، ونفوسهم مشرقة؛ لهذا بشرهم رسول الله بظلِّ الله يوم القيامة.. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾[1].

يَوْمَ ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾[2].

وقد دنت الشمس من الرءوس، واشتد الكرب، وود الناس الانصراف من هذا الموقف الرهيب، تكون هناك فئة من الناس فى رحمة الله وعطفه، من هؤلاء رَجُلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد.

إن المساجد لشَرَفهَا أضَافَها اللهُ إليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[3].

وقال - جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4].

---

(١) سورة عبس - الآيات من ٣٤ - ٣٦.
(٢) سورة المعارج - الآيات من ١١ - ١٣.
(٣) سورة الجن - من الآية ١٨.
(٤) سورة التوبة - الآية ١٨.

إن المسلم مُطالَب بأن يُحافظ على الصلاة جماعة فى المسجد، فإذا قُضيَت انصرف الشخص للسعى على معاشه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

إن الإسلام عند ما رغبك فى الجلوس فى المسجد لتتزود من الخير فى رحابه وما يتردد بين جنباته أراد لك الخير والسعادة، أمَّا أن يهرب الإنسان من عمله ويجلس فى المسجد فهذا شىء لا يقره الإسلام؛ لأنه لا رهبانية فى الإسلام، ولا دروشة ممقوته يحترفها بعض الناس باسم الإسلام، فهذا شىء مرفوض؛ ولذلك ورد أن سيدنا عمر بن الخطاب وجد جماعة فى المسجد يدعون أنهم من المتوكلين، فقال لهم: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علِمَ أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة.

إن الحق ـ جل جلاله ـ وزع الصلاة على فترات فى اليوم والليلة؛ لتكون بمثابة محطات يستريح الإنسان عندها ويتزود منها ويخرج بشحنة إيمانية يستطيع بها أن يواصل عمله بعد ذلك بهمة وكفاءة؛ ولذلك حدث أن النبى ﷺ دخل المسجد فرأى أحد الصحابة يجلس فيه، والوقت وقت سَعْى ومَشْىٍ فى مناكب الأرض، فسأله: ما الَّذى أجَلَسَكَ الآنَ وقد قُضيَت الصَّلاَة؟ قال: يا رسول الله، دُيُونٌ لَزِمَتْنِى وهُمومٌ لَحِقَتْنِى. فأفهمه النبى ﷺ أن جلوسه فى المسجد لا يَقْضِى عنه دينًا ولا يُفَرِّج هَمًا، وأمره بالسعى مستعينًا بالله، ونصحه أن يستعيذ بالله من الهم والحزن والعجز: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنَ وقَهْرِ الرِّجَالِ».

(١) سورة الجمعة ـ الآية ١٠.

إن المسجد لا يعطل نشاط الفرد، بل يدعم سعيه بالثواب؛ ولهذا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾[1].

أى: إذا انتهيت مِنْ صَلاتِك فاجتهد فى عملك واتعب، ولا تقعد عن أداء واجباتك فى الحياة، فإن السعى على المعاش عبادة.

إن مجتمع المدينة بقيادة سيدنا محمد شهد نظرية التطبيقِ الرائد لآى القرآن الكريم، فكان رسول الله ﷺ يقود أصحابه بالممارسة العملية إلى تطبيق نظرية الدين وتحويلها إلى سلوك، وكان المسجدُ الذى فُرِشَ بالرمال والحَصْبَاء مدرسةً خَرَّجَتْ قادة العالم، وربَّتْ أئمة المسلمين فى كل مَنَاحِى الحياة. لقد تفجر منه نبع الحضارة الزاهرة، وتعهد رسول الله ﷺ رواده بالتربية المثمرة والمعرفة النافعة، وفى رحاب المسجد تم التحامٌ بين الناس، وقبل ذلك رَبَطَهُم بخالقهم.

لقد انصهرت مشاعر الإيمان فى جو المسجد وَائْتَلَفَتِ العناصر المختلفة تحت راية الله، واختفت العصبية، فما أروع تلك الجامعة العظيمة التى عجزت الدنيا أن تأتى بمثلها؛ لأن الجميع عاش فى نعمة الهدوء وأجواء السلام.. لقد تحول مَنْ فى المجتمع مِنْ متناحرين عابدين للأوثان، إلى جُنودٍ للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين من كل هوى، بين جوانحهم خير، وعلى لسانهم الكلمات العفيفة، وعلى وجوهم نور... كانوا كما نقول: «عندهم ضمير» مما واستيقظ فى تلك المدرسة الجامعة، وكما يقول فيهم الشاعر:

اللهُ يَعْرِفُهُمْ عُبَّادَ مَسْجِدِهِ ... وَالنَّاسُ تَعرِفُهُمْ لِلْخَيْرِ أَعْوَانَا

والمجتمع اليوم يستطيع العودة إلى المسجد؛ ليتزود بزاد التقوى والخُلُق، حتى تخمد النار المشتعلة فى نفوس البشر؛ ذلك لأنه بالعودة إلى المسجد سيتم تربية الأفراد من جديد، والأمة التى تريد أن تبنى أبناءها لابد أن تُنَشِّئَهُمْ على الدين الصحيح، وتغرس فى نفوسهم العقيده الصحيحة التى تعتمد على وحى

(١) سورة الشرح ـ الآية ٧.

الله وهدى أنبيائه ورسله؛ لهذا كان رسول الله ﷺ يهتم بتربية الأفراد، وتأسيس النفوس على الحق والخير، وتعويدهم على التمسك بالمبادئ الأخلاقية التى كانت تنزل عليه وحيًا من الله؛ ولذلك لما سُئلت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُه القُرْآن».

إن الصحابة الكرام الذين فقهوا الدروس المحمدية ووعوها وطبقوها فى سلوكهم سَعِدَتِ الإنسانية بهم، وازدهرت الحياة بفضل عملهم. والمسجد بعطائه قائم، وما على البشر إلاَّ أن يدخلوا إلى رحابه بإخلاص، وفى نيتهم الاستقادة منه، وسوف تتغير تلك الحالة التى تعانيها الإنسانية من الاضطراب والخوف إلى الاستقرار والأمان. إن المسجد الذى يفتح أبوابه للكبار والصغار والشباب من الجنسين يقدم لكُلٍ ما يتلاءَم مع سنِّه وفكره. وكان من منهج الداعية الأول: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ». ولكن حدث أن ابتعد المسلمون عن منهاج ربهم، وتركوا سُنة نبيهم، وتفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل فريق يؤيد رأيه وينتصر له ويهدم الرأى الآخر، ولو كان هو الحق، وانغمس المسلمون فى هذا الخلاف، فكان نتيجة ذلك أن فطن الاستعمار لهذا الخلاف الناشب بين المسلمين، فأعد عُدته وغزا بلاد المسلمين واستعمرها، وكان يعلم مسبقًا دور المسجد فى الأمة، وأنه قلبها النابض، وروحها الخافق، ودوره غير خاف على أحد؛ لهذا نشر حوله سياجًا من الأفكار الوافدة الغريبة على أُذُن الأمة الإسلامية، وعمل على تجفيف كل الروافد التى تصب فيه حركة ونشاطًا، فتهالك دور المسجد وأظلم، وأصبحت مواعظه ودروسه باهتة، لا تخدم غرضًا، ولا تحقق غاية، وكانت الدواوين الخطابية التى تتداولها الأيدى سببًا فى الخواء الروحى.

لقد أصبح التزمت الفكرى سببًا فى انصراف الناس وبعدهم عن المسجد، وانتشرت المقاهى وما شاكلها، فجلس الناس عليها حلقًا يقضون أوقاتهم ويضيعون ساعات العمر التى سيُحاسبون عليها غدًا أمام رب العالمين، لأنه جاء فى الحديث: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حتى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَع: عَنْ عُمرِه فيم

أَفْنَاهُ؟ وعَنْ شَبَابِه فِيم أَبْلاَهُ؟ وعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ؟ وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟».

وفى غمار هذه المحنة القاسية التى ألمت بالمسجد عانى المجتمع كله بسبب ضياع الأخلاق الكريمة، وتأخر المسلمون فى كل فن وعلم، فى حين تقدم غيرهم. مع هذا لم يذب المسجد، ولم تضع علومه، ولم ينصهر فى أتون تلك المحن المتتالية، وإنما وقف شامخًا يدفع السيل الداهم. ويرد العدو والهاجم، ويصنع الرجال الذين يؤججون أخطر الثورات للقضاء على الظلم، وطرد العدو، وتصحيح الفكر الذى أصابه السقم.. وحلقات الدروس لم تنقطع فى رحابه، مما كان سببًا فى الحفاظ على اللغة العربية، التى هى لغة القرآن الكريم، علاوة على أنها أهم مقومات الأمة العربية.

٣ ـ جامع عمرو بن العاص

لقد جرى العرب فى فتوحاتهم على أن يؤسسوا فى الأقطار التى يفتحونها عواصم جديدة يختارون موقعها بما يتفق ومصالحهم العامة، ففيما يتعلق بمصر ـ بعد أن فتحها العرب ـ أسس عمرو بن العاص حاضرة جديدة سنة إحدى وعشرين للهجرة فى المكان المتسع الذى يقع إلى الشمال من حِصْن بابليون، وأسماها الفسطاط...

وما كاد عمرو بن العاص ينتهى من تأسيس مدينة الفسطاط حتى أقام فى وسطها جامعه العتيق.. كانت مساحةُ جامع عمرو فى أول أمره خمسين ذراعًا طولاً وثلاثين ذراعًا عرضًا، وكان سقفه منخفضًا جدًا، ولا صَحْنَ له.

قال الكندى عن يزيد بن أبى حبيب: سمعتُ أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح «جامع عمرو» يقولون:

وَقَفَ على إقامة قِبْلَةِ المسجد الجامع ثمانون رجلاً مِنْ أصحاب رسول الله

ﷺ، فيهم الزبير بن العوام، والمقداد، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعقبة بن عامر، وأبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنهم[1]...

وأول من زاد فى جامع عمرو هو مسلمة بن مخلد الأنصارى، والى مصر مِنْ قِبَلِ الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وكان ذلك سنة ٥٣ هـ.

وكانت الزيادة الثانية ـ كما يقول القضاعى ـ فى عهد عبد العزيز بن مروان... كذلك أَمَرَ عبد الله بن مروان والى مصر مِنْ قِبَلِ أخيه الوليد برفع سقف المسجد ـ وكان مُطَأْطَأً ـ وذلك فى سنة ٨٩ هـ.. ثم إنَّ قُرَّةَ بن شريك العبسى هَدَمَ الجامع فى مستهل سنة ٩٢ هـ بأمر الوليد بن عبد الملك، وفرغ من بنائه سنة ٩٣ هـ ـ ونصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤ هـ، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد من عهد عمرو بن العاص، وكان منبر جامع عمرو هو المنبر الوحيد فى مساجد مصر[2]... وأمر قُرة بن شريك بعمل المحراب المجوف، وهو المحراب المعروف باسم محراب عمرو؛ لأنه فى سَمْتِ محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو بن العاص.

وفى العصر العباسى زاد فى المسجد صالح بن على، والى مصر مِنْ قِبَل أبى العباس السفاح، وذلك بإضافة أربعة أساطين فى مؤخرته، وذلك فى سنة ١٣٣ هـ.

وفى سنة ٢١٢ هـ أمر عبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل الخليفة المأمون بالزيادة فى المسجد، وبذلك أصبحت مساحته تقارب مساحته الحالية، وأصلح بنيان السقف.

وفى عهد الدولة الطولونية وقع فى مؤخرة المسجد حريق هلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر فأمر خمارويه بعمارته، فأُعيد على ما كان عليه.

وفى العصر الإخشيدى نقش أكثر العُمُد وطُوِّقَتْ بأطواق من الفضة، حتى إذا ما جاء منتصف القرن الرابع الهجرى كان المسجد بالغًا حَدَّهُ من الزُّخرف.

---

(١) انظر: مساجد مصر، لسعاد ماهر، ج ١ ص ٦٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٦٥.

وبالرغم من أن الجامع الأزهر هو مسجد الدولة الرسمى فى عصر الدولة الفاطمية فإن جامع عمرو بن العاص حَظِيَ بكثير من العناية والرعاية من الخلفاء الفاطميين.

ولما أُحرقت مدينة الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها، واستمرت النيران مستعرة (٥٤) يومًا، تهدمت المدينة، وخربت مبانيها، وتشعث جامع عمرو... فلما استقل صلاح الدين بِحُكْم مصر كان من أهم الأعمال المعمارية التى اهتم بها عمارة جامع عمرو[1].

وقد توالت يد الإصلاح والتعمير والتجديد طول العصر الملوكى، فيذكر لنا المقريزى وصفًا مسهبًا سهلاً عن كل تجديد قام به أى سلطان من السلاطين، فيذكر عمارة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ، ثم عمارة المنصور قلاوون سنة ٦٨٧ هـ، والأمير سلاد سنة ٧٠٣ هـ وغيرهم.

ولما جاءت الحملة الفرنسية جرى على مسجد عمرو ما جرى لغيره من الهَدْم والتخريب.

وكان لجامع عمرو وظائف متعددة؛ إذ لم يقتصر عمله على أداء الفرائض الدينية فحسب، بل كان جامعة تعقد فيه حلقات الدرس على كبار العلماء والفقهاء، وقد سبق الجامع الأزهر فى وظيفة التدريس بأربعة قرون وجلس فيه للتدريس الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص، بأمر من الخليفة عمر ابن الخطاب، وكان يعلم الناس أحكام الدين الإسلامى... والإمام الشافعى، وكثير من الأئمة والأعلام على مر العصور.

ويقول المقريزى - نقلا عن ابن الفرات: «أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر - قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ٧٤٩ هـ - بضعًا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه».

وكان يُقام بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها - فى الدولة الفاطمية - واعظة زمانها أم الخير الحجازية... ولم تنقطع أخبار التدريس بهذا الجامع إلاَّ فى القرن التاسع الهجرى[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق ص ٧٣..

وكانت تعقد بالجامع محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية، يقول المقريزى عن ذلك: «وبالجامع - أى جامع عمرو - ثلاث زيادات، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاض القضاء بها، فى كل أسبوع يومان».

كما كان بجامع عمرو بيت للمال كان موقعه أمام المنبر، وقد ذكره ابن رسته - من علماء القرن الثالث الهجرى - ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد.

وكان للمسجد وظائف أخرى متعددة لا يتسع المقام هنا لذكرها[1]. والجدير بالذكر - ونحن نتحدث عن أول وأقدم جامع فى مصر، بل فى القارة الإفريقية - أن نذكر أن هذا المسجد العتيق - دون غيره من مساجد مصر - هو الوحيد الذى كان الخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء يصلون فيه الجمعة اليتيمة فى آخر شهر رمضان.. وقد نشأ هذا التقليد منذ عهد الدولة الفاطمية، واتخذت عادة حتى سنة ١٩٥٢هـ.

٤ - الجامع الأزهر

ثالث المساجد الكبرى التى بُنيت فى مصر منذ الفتح الإسلامى، فأولها مسجد الفتح، وقد بناه عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط (مصر القديمة) وثانيها مسجد ابن طولون، وقد بناه أحمد بن طولون بمدينة القطائع. وثالثها الأزهر، وقد بناه «جوهر الصِّقلى» بمدينة القاهرة، فَمَنْ هو جوهر الصقلى؟ هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلى، وكان قائدًا عسكريًا فى خدمة المعز لدين الله الفاطمى.

وقام جوهر الصقلى بغزو مصر يوم الثلاثاء الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٨، أما بناء الأزهر فكان بعد عام من هذا الغزو.

وقد أمر جوهر الخطباء أن يخلعوا السَّوَادَ - شعار العباسيين - ويلبسوا البياض - شعار الفاطميين - وأن يقولوا فى الخطبة: «اللهم صَلِّ على محمد المصطفى، وعَلِى المُرْتَضَى، وعَلَى فاطمة البَتُول، وعَلَى الحَسَن وَالْحُسَيْنِ سِبْطَي الرَّسُول،

---

(١) لمزيد من الاطلاع انظر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، لسعاد ماهر ج١ ص ٥٥ - ٧٦.

الَّذينَ أَذْهَبَ الله عنهم الرِّجْسَ وطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا، وصَلِّ على الأئمة الطاهرين، آباءِ أمير المؤمنين المعز لدين الله».

ففعلوا ما أمرهم به.

انقطاع الخطبة من الأزهر:

ولَمَّا طَرَدَ صلاحُ الدين يوسفُ بن أيوب الفاطميين من مصر، قَلَّدَ - أى صلاح الدين - عبد الملك بن درباس وظيفة قاضى القضاة، وكان سُنِّيا، شافعيَّ المذهب، فمنع الخطبة من الأزهر، وأَقَرَّهَا بالجامع الحاكمى - أى جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى - بالجمالية؛ لكونه أَوْسَعَ منه، وفقًا لمذهبه.

عودة الخطبة إلى الأزهر وبدء نهضته:

ومضى على الأزهر قرن من الزمان مهملاً بعد نقل الخطبة منه إلى مسجد الحاكم بأمر الله، حتى جاء الملك الظاهر بيبرس، فزاد فى نبائه، وشجع التعليم فيه، وأعاد الخطبة إليه سنة ٦٦٥ هـ وَحَذا حذوه في الاهتمام بالأزهر طائفة من الأمراء، وأصبح الأزهر معهدًا علِميًا جامعًا تُدَرَّس فيه شتى فروع العلوم الدينية والعلمية واللغوية، وغيرها.

وتاريخ الجامع الأزهر - كما ذكرنا - يرتبط بمؤسس القاهرة جوهر الصقلى، قائد المعز لدين الله الفاطمى، الذى ابتدأ العمل به فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠م وانتهى من بنائه فى رمضان سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وأُقيمت به أول جمعة فى السابع من رمضان فى السنة المذكورة.

وأُنْشِئَ الأزهر - كغيره من المساجد - لتُقامَ به الشعائر الدينية، ولكن لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طُلاَّب العلم مختلف العلوم الدينيه والعقلية، وبذلك يُعَدُّ الجامع الأزهر من أقدم وأشهر الجامعات فى العالم الإسلامى.

كما يُعد الجامع الأزهر أول عمل معمارى فاطمى عاصر تأسيس القاهرة، وظل باقيًا حتى اليوم. وقيل إن الاسم الذى أُطلق عليه - وهو «الأزهر» - مُتَّخَذٌ من لفظ «الزهراء» لقب السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وقد رأى الفاطميون فى إقامة الأزهر مجاراة للتقاليد الإسلامية التى شرعها المسلمون عند تأسيس عواصمهم ومدنهم، من ضرورة إقامة جامع لأداء فريضة

الصلاة، ومناقشة شئونهم السياسية والاجتماعية، ومن ناحية أخرى فإن جوهرًا الصقلىّ مؤسس القاهرة رأى من حُسن السياسة وبُعد النظر إقامة جامع خاص بالفاطميين ـ الشيعة ـ ليكون مركزًا لنشر تعاليمهم.

والجامع الأزهر الذى نراه اليوم لاترجع مبانيه كلها إلى عهد جوهر الصِّقلى، بل إن الجزء الفاطمى كله لايزيد على نصف مساحة الجامع الحالية بعد أن أُضيفت إليه ـ فى عصور مختلفة ـ مجموعة من الأبنية الأثرية.

وإذا حاولنا أن نحدد تخطيط الجامع الأزهر منذ إنشائه فَلْنَدْخُل إلى الجامع من بابه الرئيسى المطل على الميدان، حيث نجد على اليمين المدرسة الطيبرسية، وعلى اليسار، المدرسة الأقبغاوية، وهما عمارة مملوكية، ولنتقدم حتى نصل إلى الباب المواجه لنا، فهو باب قايتباى، وعلى يسارنا مئذنة، وعلى يميننا مئذنة الغورى ذات الرأسين، ثم نصل إلى صحن مكشوف للجامع، يحيط به عقود مقامة على أعمدة، وهى مضافة في عهد الخليفة الحافظ. وصحن الجامع المكشوف مستطيل الشكل، مساحته ٥٩ × ٤٣ مترًا، وعلى جانبيه من الشرق والغرب رواقان، وإذا اتجهنا مستقبلين القبلة فإننا نكون فى الواقع قد وصلنا إلى حيث رواق الصلاة للجامع الأزهر الأصلى منذ عهد جوهر الصقلى.. وقد كانت مساحة الجامع الفاطمى ٨٨ × ٧٠ مترًا.

وخلف رواق القبلة الأصلى الفاطمى رواق آخر يتميز بأرضية مرتفعة، وهو الرواق الذى أضافه عبد الرحمٰن كَتْخُدَا.

ولا يزال الجامع الأزهر يختفظ بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التى أجريت خلال العصور التاريخية المختلفة، وتشتمل الزخارف الفاطمية الأصلية فى الجامع الأزهر على العناصر الهندسية والنباتية، والكتابات الكوفية.

وفى العصر العثمانى أجرى الأمير عبد الرحمٰن كتخدا عمارات كثيرة فى الجامع الأزهر، فأضاف إلى رواق القبلة رواقًا آخر يشتمل على ٥٠ عمودًا

رخاميًا تحمل بوائك ذات عقود حجرية، وبنى فى هذا الرواق محرابًا جديدًا من الرخام، وضع له منبرًا من الخشب، كما أنشأ الباب المعروف باسم باب الصعايدة، الواقع فى نهاية الواجهة القبلية وبداخله مكتب لتحفيظ القرآن الكريم، يجاوره منارة شيدها، وقبة أعد بها قبرًا دُفن فيه، كما أنشأ الباب المعروف بباب الشوربة.. تجاوره منارة أخرى، كما جدد واجهة المدرسة الطيبرسية والأقبغادية، وجمع بينهما بالباب الكبير ذى الفتحتين، المعروف باسم «باب المزينين» المشرف على ميدان الأزهر.

وتوالت أعمال التجديد والتعمير بالجامع، إلى أن كانت سنة ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م، فقد أمر الخديو عباس حلمى الثانى بإنشاء الرواق العباسى، وتجديد الواجهة البحرية المقابلة لمسجد «محمد بك أبو الذهب».

والأزهر يضم أروقة، ومدارس، ومحاريب، وأبوابًا ومآذن أُقيمت فى عصور مختلفه، ولا مثيل لها فى أى مسجد آخر.

ويجرى حاليًا تنفيذ مشروع ترميم الجامع الأزهر ترميمًا شاملا، وإعادة تخطيط المنطقه المحيطة به، حتى يظهر الجامع بالصورة الحضارية اللائقة بمكانته وأهميته.

٥ ـ جامع أحمد بن طولون

أحمد بن طولون من الشخصيات الشهيرة التى حكمت مصر. وإليه ينسب تأسيس الدوله الطولونية. وقد ولد فى شهر رمضان ٢٢٠ هـ فى مدينه بغداد، وكان يمتاز بالشجاعة والذكاء والنشاط والعلم، والتقوى، والصلاح، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان رجلاً وحاكمًا ممتازًا.. وقدم إلى مصر عام ٢٥٤هـ حيث كان المعتز على عرش الخلافة، وقد أَقْطَعَ «باكباك» ـ زوج والدة أحمد بن طولون ـ مصر عام ٢٥٤ هـ وكان من عادة القواد أن يحيطوا أنفسهم بالجند ممن يُشايعونهم، وكان أحمد بن طولون قائدًا له شأن فى وسط الجند، لمهارته، ولما عُرف عنه من الصلاح والتقوى، ولما كان يتمتع به من ذكاء وبُعْدِ نظر وفراسة، كما كان كريمًا، ومن ثَمَّ استطاع أن يضم لنفسه إدارة خراج البلاد، ثم أصبح أميرًا على مصر والإسكندرية وبَرْقة، وجَهز جيشًا قويًا، وكان يعالج المشاكل

بحكمة ولباقة. وقد استطاع أن يُكَوِّن جيشًا عظيمًا، ولأول مرة على يديه استقلت مصر عن الخلافه العباسية، وأصبح لها أسطول.

وكان ابن طولون يحب رعيته ويعس بالليل ليتعرف على أحوال المواطنين؛ لذلك أفادت مصر من حكم الدولة الطولونية، وعَمَّ فيها الرَّخَاء وخطبت الدولُ وُدَّها.

هذا، ولما ضاقت مدينة الفسطاط بساكنيها أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع عام ٢٥٦ هـ، وأقام فى وسطها مسجدًا جامعًا تمت عمارته عام ٢٦٥ هـ، ويعد هذا المسجد من أكبر مساجد العالم الإسلامى، إذ تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصفًا، ويقول المقريزى: إن ابن طولون بنى المسجد فى موضع يُعْرف بجبل «يَشْكُر» وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء؛ لأنه قيل: إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات».

ويقول الإمام القضاعى: إن ابن طولون قال: أريد أن أبنى بناءً إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى. فقيل له: يُبْنَى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى، ولا يُجعل فيه أساطين رخام، فإنه لاصبر لها على النار، فبنى هذا البناء - وبناه على بناء «جامع سامرا» وكذلك المنارة.

وقال ابن عبد الظاهر: سمعتُ غير واحد يقول: إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء الجامع أمر حاشيته بسماع ما يقول الناس فيه من الأقوال والعيوب، فقال رجل: محرابه صغير. فكان رد ابن طولون بقوله: إنى رأيتُ رسول الله وقد خَطَّهُ لى فى المنام - فلما أصبحت رأيتُ النمل قد طافت بذلك المكان الذى خطه لى رسول الله ﷺ.

وقيل: لما فرغ ابن طولون من بناء المسجد رأى كَأَنَّ نارًا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله من العمران، فلما أصبح قَصَّ رؤياه، فقيل له: أَبْشِرْ بقبول الجامع المبارك؛ لأَنَّ النَّارَ فى الزمن الماضى كانت إذَا قَبِلَ اللهُ قُرْبانًا نزلت من السماء فأخذته - ودليله قصة قابيل وهابيل.

والمسجد متعدد المحاريب كما هو الحال فى كثير من المساجد، مثل الجامع الأموى، والجامع الأزهر، وعدد محاريب جامع ابن طولون خمسة، أكبرها وأهمها الأوسط، وصحن المسجد الفسيح يملأ النفس إجلالاً، فهو شاسع، رفيع الجدران، تطل عليه البوائك من كل ناحية.

وكان العلماء يقومون بالتدريس فى مسجد ابن طولون، خاصة تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، كما كانت تقام فيه حلقات لتدريس التفسير والحديث، علاوة على الطب.

وفى القرن الثانى عشر كان الجامع مهملاً، فأُنْشِئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية، ثم تحول إلى ملجأ للعجزة والمسنين فى سنة ١٢٦٣ هـ، وكان العمل تحت إشراف شخصيات تفهم ذلك، كما كان فى الجهة الجنوبية من المسجد سبيل وكتَّاب لتحفيظ القرآن الكريم. كما أنشئ مكتب لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله والعلوم التى يرغبون فى تعلمها ونلحظ أن هذا المسجد الجامع أدى دورًا رائدًا ورائعًا فى نشر الثقافة والعلوم والمعارف علاوة على الأصلين العظيمين، وهما: كتاب الله ـ وماله من تفاسير ـ وحديث رسول الله ﷺ، وما يتصل بذلك من علوم ومعارف.

٦ ـ مسجد دمشق (المشهور بالمسجد الأموى)

من أشهر مساجد الشام، بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٨٨ ـ ٩٦ هـ (٧٠٨ ـ ٧١٤م) وكان الوليد مولعًا بالعمارة، وخاصة عمارة المساجد، فاستقدم له الفنيين والصُّنَّاع من سائر الأقاليم الإسلامية، وأنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين.

ويُعَدُّ هذا المسجد من أعظم المساجد الإسلامية لرحابته، وارتفاعه، وجمال نسَبِه المعمارية، وزخارف الفسيفساء المذهَّبة والملونة التى تغطى بعض أجزائه التى تمثل مناظر دمشق وقتها، كما يعد آية من آيات الفن العربى والبيزنطى. ولا

يزال حافظا لرونقه وبهائه إلى اليوم، وقد قيل: عجائب الدنيا أربع: «قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرها، ومسجد دمشق». وهذا يدل على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والإتقان والكمال.

وفى أيام عمر بن عبد العزيز جاءت وفود الروم من قِبَلِ إمبراطور الروم، ورغبوا فى زيارة المسجد الأموى، فسمح لهم عمر بن عبد العزيز، فلما مَرُّوا بصحن المسجد ورأوا عظمة البناء، نكس رئيس الوفد رأسه وقال متأثرًا بما رأى: «إنَّا ـ معشر الروم ـ كنا نتحدث بأن بقاء العرب قليل، فلما رأيت مابنوا علمت أنهم باقون مخلدون».

وقد أَثَّرَ تخطيط هذا المسجد فى المساجد التى أُنشئت فيما بعد فى شمال إفريقية والأندلس.

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يَؤُمَّ الناسَ فى صلاة الجُمعة، وفى الصلوات الخمس. وقد سار على ذلك الخلفاءُ الراشدون، ثم معاوية، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز من خُلفاء بنى أمية، ولم يهتم غيرهم من الخلفاء بأن يؤمُّوا الناس فى الصلوات الخمس، واقتصروا على إمامتهم فى صلاة الجمعة.

وكان الخليفةُ فى العصر الأموى يحضر إلى المسجد مرتديًا ثيابًا بيضاء، وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر، ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، وبيده الخاتم والعصا، وهما شَارَتَا المُلْك.. وكثيرًا ما كان بعضُ الخلفاءِ الأُمويين لا يحضرون صلاة الجمعة، بل يُنيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة[١].

مكانة مسجد دمشق العلمية والعلماء الذين تخرجوا فيه:

هذا، وقد أدى مسجد دمشق دورًا بارزًا فى نشر العلوم الإسلامية فى ربوع

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسى والدينى، للدكتور حسن إبراهيم، ج ١ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٧.

العالم العربى والإسلامى، وكان طُلاَّب العلم يلتفون حول أساتذتهم فى حلقات ينهلون من علمهم الصافى.

ومن العلماء الذين تخرجوا فى هذا المسجد الجامع: الإمام ابن تيمية، وشمس الدين الذهبى، وابن قيم الجوزية، والأوزاعى وغيرهم من أعلام الإسلام الذين أثروا الفكر الإسلامى بمؤلفاتهم القيمة وتراثهم الخالد الذى خَلَّفُوه لنا.

٧ - القيروان

القَيْرُوانُ مدينة فى تونس أنشأها عُقْبَةُ بن نافع سنة ٥٠ هـ سنة ٦٧٠م، وكانت عاصمة الأغالبة ثم الفاطميين، إلى جانب المهدية. وهى شهيرة بمسجدها. وكانت داراً للصناعة، ومحطًا للقوافل، وسوقًا للتجارة.

عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

كان معاوية بن حُدَيْج - بعد فتح كُل من سُوسَةَ وجَلُولاء وبَنزرت - قد رجع إلى قمونية، وبَنَى بناحية القرن مساكن وسماها قَيْرَوانًا. لكن بعد ذلك النشاط الذى بدأ فى جبهة شمال إفريقية نرى تصعيداً لحركة الفتح فيها، وزيادة اهتمام من طرف الخليفة معاوية بن أبى سفيان بأمرها، تمثل ذلك فى إسناد قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى عقبة بن نافع الفهرى، الذى شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص، وكسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو قد خَلَفه على بَرْقَةَ عند عودته إلى الفسطاط، فظل عُقْبَة فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

وقد جاء إسناد القيادة إلى عُقْبَةَ خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه - لطُول إقامته فى بَرْقَة - وزويلة وما حولها - منذ فتحها فى أيام عمرو بن العاص - أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية لابد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين، ينطلقون منها فى غزواتهم ويعودون إليها، ويأمنون

فيها على الأهل والمال، فلما أسند معاوية بن أبى سفيان إليه قيادة الفتوحات فى إفريقية أرسل إليه عشرة آلاف فارس، وانضم إليه مَنْ أسلم من البربر، فكثر جَمْعُهُ، فسار حتى نزل قريبًا من سُرْت، فبلغه أن أهل وَدَّان قد نقضوا عهدهم مع بُسر بن أبى أرْطَأَة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو ابن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسمًا من الجيش يقودهم عمر بن على القرشى، وزهير بن قيس البلَوى، وسار هو بالقسم الآخر من الجيش متجهًا إلى فَزَّان. فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام، فأجابوا، ثم واصل فتوحاته.

ثم شرع عُقْبَةُ فى تنفيذ الفكرة التى عزم عليها، وهى بناء مدينة تكون قاعدة للمسلمين، فقال للجنود: «إن إفريقية إذا دَخَلَها إمامٌ أجابُوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رَجَعَ مَنْ كَانَ أجابَ منهم لدينِ الله إلى الكفر، فأَرَى لَكم - يا معشر المسلمين - أن تتخذوا بها مدينة تكون عِزا للإسلام إلى آخر الدهر».

فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلُها مُرابطين، وقالوا: «نقربُ من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط». فقال عُقبة: «إنى أخافُ أن يطرقها صاحبُ القُسطنطينية بغتة فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة - فهم مرابطون».

ولم يعجبه موضع «القيروان» الذى كان بناه معاوية بن حُدَيْج قبله، فسار والناس معه حتى أَتَوْا موضع «القَيْرَوَان» اليوم، وكان واديًا كثير الشجر، تأوى إليه الهوام والوحوش والسباع، وأَمَرَ الناسَ بالتنَقية والخطط، وركز رمحه وقال: «هذا قيروانكم»، وأمر ببناء المدينة فُبنيت، وبَنَى المسجد الجَامِعَ بها، ويعرف بجامع عقبة، وبَنَى الناس مساجدهم ومساكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥ هـ، وسكنها الناسُ.

وفى أثناء بناء المدينة الذى استغرق خمسة أعوام - من سنة ٥٠ هـ إلى سنة

٥٥ هـ ـ كان عقبة بن نافع يغزو، ويرسل السرايا، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل كثير من البربر فى الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جَنَانُ مَنْ هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأَمِنُوا واطمأنوا على المُقَام، فثبتَ الإسلام فيها. هذا، ولم تقم القيروان بدور كبير فى فتح شمال إفريقية فحسب، وإنما قامت بدور عظيم فى نشر الإسلام فى المغرب والأندلس أيضًا، وأصبحت مركزًا من أهم مراكز الحضارة الإسلامية.

جامع الزيتونة:

وفى تونس أيضًا أنشأ المسلمون جامع الزيتونة الذى تم بناؤه سنة ١٤٠ هـ. ومنذ إنشاء ذلك المسجد ابتدأت الدراسة فيه على شكل حلقات، وظلت تتطور مع الزمن حتى أخذت نظام الدراسة الجامعية الحالية، ويُدرس به الآن جميع العلوم الدينية والدنيوية التى يتطلبها العصر الحديث[1].

* * *

مما سبق تتضح لنا أصالة رسالة المسجد، وأنه كفيل بتقديم الزاد لكافة الاتجاهات فى الحياة الإنسانية... إن الذى أصاب المجتمع الإسلامى بسبب تفكك المسلمين وتناحرهم وتنابذهم يمكن علاجه، وذلك بالاعتصام بكتاب الله والرجوع إليه، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَما تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، ولَيَنْزَعنَّ اللهُ مِنْ قُلُوب أَعْدَائكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، ولَيَقْذِفَنَّ فى قَلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَة

(١) انظر: رسالة المسجد والإمام، للأستاذ محمود السعيد ص ٧٢.
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٠٣.

الْمُوْتِ قِيلَ: أَوَ مِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لا، ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ».

ومادام المسجد يشكل كل هذا، وهو أصل قوى فى وحدة المسلمين، فلا بد لنا أن نتعرف بعض الدروس المستفادة التى درجت فى رحابه وتعهدها النبى ﷺ وصحابته وأتباعه بالرى حتى بسقت شجرة الإيمان وتأصلت، ووقف التاريخ يرقب هذا، ويسجل على جبين الزمن بحروف من نور نمو هذه الشجرة حتى أشرقت الدنيا بها، واستضاءت بهذا الضياء العظيم، وأول درس نقف أمامه هو:

الدرس الأول هو تصحيح العقيدة:

كل أمه تريد لنفسها السعادة عليها أن تُهَيِّئَ الجو المناسب لتربية النَّشْءِ على العقيدة الصحيحة التى هى ـ نظرية شاملة لتفسير الوجود الذى يحيا فيه الإنسان والنظرية الصحيحة توصل الإنسان إلى الإيمان بخالق الكون على هذا النسق العجيب الذى لم يسبق بمثيل، هذا الإله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾(1)، وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(2).

وهو ـ سبحانه ـ متصف بكل كمالٍ يليق بذاته.. إن أى عاقل لا يقول إنَّ الكون جاء هكذا من تلقاء نفسه؛ لأن مافيه من نظام مُحْكَم وقوانين ثابتة يدل على قُدْرَة قادرٍ يُدَبِّرُ الكونَ ويُسَخِّرُ مافيه بحكمة و ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾(3).

والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار سَخَّرَهَا ـ سبحانه ـ وأجراها بإرادته

---

(1) سورة الأنعام ـ من الآية ١٠٣.

(2) سورة الشورى ـ من الآية ١١.

(3) سورة فاطر ـ من الآية ٤١.

وحكمته: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

إن المجتمع الذى ينشأ أفراده على العقيدة الصحيحة تكون لديهم الثقة فى أنفسهم، والقدرة على التحرك؛ لأنهم يتحركون معتمدين على القدرة العالية التى لا تُغْلَب، ولا يخافون من شىء؛ لأنهم يعملون لما فيه رضاء الخالق جَلَّ وعلا، ومنفعة المخلوق. ويتعلمون ما ينفعهم ويدفع بهم إلى التقدم والازدهار.

إن أصحاب العقائد فى حياتهم بَنَّاءُون؛ لأنهم يعلمون أنهم خُلَفاء الله فى الأرض، هم له خاشعون ولعظمته ساجدون عن طواعية؛ لأنهم نظروا إلى العالم العلوى فرأوه مسخرًا تحت سُلطان القدرة، ثم نظروا إلى العالم السفلى - الأرض - فرأوا هذا العالم كذلك مقيدًا بنسب معينة من الضوء والحرارة والضغط الهوائى، وكذلك الكائنات التى تعيش على ظهر الأرض، فرأوها خاضعة لقانون النمو والتقدم والهرم ثم الموت، والنبات هو الآخر يجرى عليه ما يجرى على الكائنات الحية الأخرى، وهكذا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[2].

ومن هنا كان خضوع المتدين لمعبوده خضوعًا ينم عن الحب والتمجيد والتقديس والتنزيه. إن هذا الخضوع يخلق الأمل فى النفس المؤمنة، ويبعد اليأس، وينير القلب ويرققه، ويقوى العزيمة، ويسمو بالإنسان من حيز المادة الصماء إلى الآفاق الرحبة، والروحانية الطاهرة، والأمل المشرق، وهم كما وصفهم الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا

(١) سورة يس - الآية ٤٠.
(٢) سورة مريم - الآيات من ٩٣ - ٩٥.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1].

إن العقيدة الصحيحة منهاج إلـهى خالد للحياة، وضعها الله فى جميع كتبه التى أرسل بها الرسل، من آدم عليه السلام وكل من جاء بعده من الرسل، إلى أن ختموا بالنبى الخاتم لجميع الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولو أدرك الناس حقيقة هذا المنهج الإلهى الذى يعالج مشاكل الإنسان المعقد الرغائب لعلموا أن سعادة هذا الإنسان لن تتم إلا فى ظل عقيده التوحيد، وأنه لم يأمن فى مساره الطويل على ظهر الأرض إلا بتمسُّكه بتعاليم تلك العقيدة التى تصله بالله ربًا خالقًا قادرًا عالمًا، وتلك نزعة فطرية لازمت الإنسان من بداية خلقه ونموه، والإنسان لو عاش بلا دين لحطَّمَ نفسه بنفسه؛ لأن ما يبنيه اليوم يهدمه غدًا، حيث لا ضابط ولا رابط ولا وازع، أما إذا كان الدين والعقيدة فهناك الضبط المحدد، والمنهج الواضح؛ ذلك لأن المؤمن يعلم أنه لم يُخْلَقَ للدنيا فقط، ولم يخلق للأخرة فقط، وإنما خُلِقَ ليعمل فى الدنيَا زارعًا للآخرة، حيث سينتقل إليها فيجد هناك ما قدمت يداه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

إن الكرامة للفرد فى الآخرة سببها عمل صالح مبنى على يقين ثابت، وسعى نظيف، يضمن حقوق الناس فى أُلفة ومحبة وتعاون وعفة تنير جوانب الحياة. وقوام العقيدة الصحيحة ثلاثة: إيمان، وإسلام، وإحسان، فالإيمان هو التصديق القلبى بكل ما جاء عن سيدنا محمد ﷺ، والاعتقاد الصحيح بكل ما أخبر به عن الله اعتقادًا جازمًا لا يقبل الشك.

والإسلام هو: الانقياد والاستسلام الظاهرى لتعاليم الإسلام التى بَيَّنَهَا الله

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات من ٥٧ ـ ٦١.

(٢) سورة الزلزلة ـ الآيتان: ٧ و ٨.

فى القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله العظيم. وقد بين الرسول ﷺ ذلك فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: «بَيْنَما نَحْن جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَوْم إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَاب، شَدِيدُ سَوَاد الشَّعْر، لايُرَى عَلَيْه أَثَرُ السَّفَر، ولاَ يَعْرِفُهُ منَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إلى النَّبىِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْه إلى رُكْبَتَيْه، وَوَضَعَ كَفَّيْه عَلَى فَخذيْه وَقَالَ: يا مُحَمَّد، أَخْبِرْنى عَنِ الإِسْلاَم. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الإسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلـه إلاّ اللّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقيمَ الصَّلاَة، وتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ، وتَصومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنى عَن الإيمَان. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئكَته وكُتُبه وَرُسُله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمنَ بِالْقَدَر خَيْره وَشَرِّه. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنى عَنِ الإحْسَان قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنى عَنِ السَّاعَة. قَالَ: ما المسئولُ عنها بأَعْلَمَ منَ السَّائِل، قال: فَأَخْبِرْنى عَنْ أَمَارَاتها، قَالَ: أنْ تَلدَ الأَمَةُ رَبَّتَها وأَنْ تَرَى الحفاة العُرَاةَ العَالَة رِعَاءَ الشَّاة يَتَطَاوَلُونَ فى الْبُنْيَان ثُمَّ انطَلَق، فلبثتُ مَلِيًا، ثم قَالَ: يَاعُمَرُ: أَتَدْرى مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جُبْرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دينكُمْ».

هذه الدعائم الثلاثة تقوى العقيدة، وتصحح مسار الإنسان فى دنياه؛ لهذا فإن الجيل الذى تربى على هذه المبادئ ونشأ عليها كان قوى الإيمان بالله، شديد الحرص على خدمة الأمة، عفيف اللسان، نظيف اليد، حسن العمل، مجدا مجتهدًا، كان الواحد منهم يراقب ربه قبل أن يراقب أهله، يخاف الله قبل أن يخاف من رئيسه.

ونقف أمام بعض العناصر التى تَرَبَّتْ فى المدرسة المحمدية وكانوا نماذج حية فى دنيا الناس، يحدثنا التاريخ: أنه لما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن، وعسكر أبو عبيدة فى مكان هناك، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على

ديننا، أنتم أَوْفَى لنا، وأَرْأَفُ بِنَا، وأكَفُّ عن ظُلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا... ثم تمضى الرواية: لما حشد الإمبراطور - هرقل - جيشًا عظيمًا ليصد قوات المسلمين، كان لزامًا على المسلمين - نتيجة لما حدث - أن ركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم، حينئذ كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جُبِىَ من الجزية من هذه المدن. وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنَّا لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إنْ نَصَرَنَا الله عليهم.

لقد رُدَّتْ مبالغُ طائلة من مال الدولة، وكان هذا المنهج الكريم فى المعاملة الحسنة سببًا فى أن المسيحيين دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: رَدَّكُم الله علينا، ونصركم على الروم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شىء بقى لنا. تأمل هذا المسلك الحسن من المسلمين أصحاب العقيدة، كيف يتعاملون مع الناس، حتى ولو كانوا غير مسلمين؛ لأن قِيمَ الأخلاق المستمدَّة من عقيدتهم لاتتجزأ.. إن الذين يتمسكون ببعض الأخلاق ويتركون البعض نعى عليهم القرآن الكريم هذا المسلك وقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]

إن السعادة الحقيقية هى فى يقظة الضمير، وإرضاء الضمير بالعمل الخير الذى يصل الإنسان بالله عبادة، وبالناس علاقة طيبة وخُلُقًا كريمًا، ونبى الإسلام - صلوات الله وصلامه عليه - كان ينمى هذا المسلك الكريم فى نفوس أصحابه بما يضرب لهم من أمثله لأتباع الدين فى كل زمان، حتى تنشط للخير هممهم؛ لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قالّ: «اشترى رجل من رجل عقارًا

(١) سورة البقرة - من الآية ٨٥.

له، فوجد الذى اشترى العقارَ فى عقاره جَرَّةً فيها ذَهَبٌ، فقال الذى اشترى العقار منه: خُذْ ذَهَبكَ عَنِّى إنما اشتريتُ منكَ الأرض ولم أبْتَعْ منكَ الذَّهَبَ. فَقَالَ الآخَرُ: إنما بِعْتُكَ الأرضَ وما فيها. فَتَحَاكَمَا إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليه: أَلَكُمَا ولد؟ فقال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية. فقال: الحكم أَنْكِحُوا الغُلاَمَ الجارية، وأَنْفِقُوا على أنفسكم منه، وتَصَدَّقَا».

إن هذه القناعة والعفة نتيجة الإيمان الحى في النفوس، والإيثار الناتج بسبب العقيدة الصحيحة، وهذا اللون الممتاز من البشر هم الذين تربوا فى مدارس الإيمان، وعلى يد الهداة المصلحين، وبين جدران المساجد ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1].

وهذا اللون من المسلك الطيب والسيرة الحسنة تحلى به الأحرار والعبيد، يروى كُتَّابُ السِّيَر: أَنَّ عمر بن الخطاب خرج يومًا ومعه عبد الله بن دينار، فوقفا على راعٍ لغنم، فقال عمر: بِعْنى شَاةً يا راعى الغنم فقال الراعى: إنِّى مملوكٌ، قال عمر - اختبارًا له -: قُلْ لِسَيِّدِكَ: «أَكَلَهَا الذِّئْبُ» فَرَدَّ الراعى. قائلا: فأين الله؟ فَبَكَى عُمر، ثم تعرف على سيد العبد واشتراه منه وأعتقه، وقال له: أَمَاتَتْكَ أعْتقتكَ فى الدنيا، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة.

إن أى مجتمع لا يسعده كثرة القوانين وإصدار القرارات، وتعدد جهات السلطة، ورجال الشرطة، ولكن سعادة المجتمع فى يقظة ضمير أفراده، وعفة أبنائه، ونزاهة مواطنيه؛ لأن الغالبية العظمى تستطيع الفرار من قَبْضَة القانون والإِفْلاَت من رجال الشرطة، ويستخفون من الأعين، ولكنهم لا يستطيعون الهرب من الضمير ويقظته؛ لأن صاحب العقيدة يصبح ويمسى مراقبًا لله، محاسبًا لنفسه، متيقظًا لأمره، لا يَدَّعِى ما ليس له، ولا يجحد ما عليه، ولا

(١) سورة النور - الآيتان: ٣٦ و ٣٧.

يفعل فى السر ما يستحى منه فى العلانية، ولا يعمل عملاً فى يومه يخاف من المساءلة عليه غدًا، ولسان حاله يردد مع الشاعر:

إذَا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ، ولَكِنْ قُلْ عَلَىَّ رَقِيبُ

ولاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... ولا أَنَّ ما تُخْفِيهِ عَنْهُ يَغِيبُ

إن المجتمع لا يستغنى عن رجال الأمن وسَنِّ القوانين، ولكنه مع ذلك لابد من وجود قُلُوبٍ يقظة، ونُفُوس حية؛ لأنه كما قال الشاعر:

لَنْ يَصْلُحَ القَانُونُ فِينَا رَادِعًا ... حَتَّى نكُونَ ذَوِى ضَمَائِرَ تَرْدَعُ

ونقف الآن أمام نموذج فريد فى التربية الخلقية الناتجة عن يقظة الضمير الحى، هذا النموذج تمثله امرأة غاب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن؛ لأنه كان فى الجيش، فخيم عليها الليل بظلامه، وهجمت عليها الهواجس، وثار فى عروقها دم الأنوثة، وانطلق صوت الغريزة من داخلها، ولكنَّ الإيمان والضمير حجزاها عن فِعْلِ ما لا يليق، والقصة كما جاءت فى تفسير ابن كثير: أن عمر ابن الخطاب خرج من الليل فسمع امرأة تقول:

تَطاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَازْوَرَّ جَانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِى أنْ لاخَلِيلَ أُلاَعِبُهْ

أُلاَعِبُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّمَا ... بَدَا قَمَرًا فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَاجِبُهْ

يُسَرُّ بِهِ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقُرْبِهِ ... لَطِيفُ الحشَا لا يجتويهِ أَقَارِبُهْ

فَوَ اللهِ لَوْلاَ اللهُ لا شَىْءَ غَيْرُهُ ... لَزُلْزِلَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

وَلَكِنَّنِى أَخْشَى رَقِيبًا مُوَكَّلاً ... بأَنْفَاسنَا لا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كَاتِبُهْ

مَخَافَةَ رَبِّى والْحَيَاءُ يَصُدُّنِى ... وَإِكْرَامَ بَعْلِى أَنْ تُنَالَ مَرَاكِبُهْ

إن المرأة بعد أن ثار فى عرقها دم الأنوثة خافت ربها، وأكرمت بعلها، فلم تسمح لنفسها بفعل شىء يخدش حياءها، ويهدر كرامة زوجها، ويدنس

شرفها؛ لهذا فإن الدرس الأول هو تصحيح العقيدة، والاتجاه إلى تربية الضمير؛ ليكون الإنسان فى مراقبة دائمة لله، يحسن بذلك العمل، ويجود الصنعة، ويخلص فى أداء الواجب المنوط به، ولا يتهرب من المسئولية مهما كانت. والإنسان بهذه الصفة صاحب مروءة وشهامة ونجدة، يمد يد العون والمساعدة للغير ـ أيا كان ـ بوازع من الضمير والمروءة.

حدث أن شابًا كان يركب جملاً، ولما أخذ منه التعب كل مأخذ نزل فى مكان به الشجر ليستريح، واستلقى الشاب تحت شجرة وراح فى نوم عميق، فى حين أخذ الجَمَلُ يبحث عن العشب ويتتبع أثره إلى أن دخل حديقة وعبث بأشجارها، فطرده البستانى منها، ولكن الجمل عاد مرة أخرى، فضربه البستانى بالعصا، فوقع قتيلا، وكان الشاب قد استيقظ، فرأى أن جمله قد قتل، وبدأ البستانى يقص عليه القصة بأن جَمَلَهُ عاثَ فى الحديقة وأفسد فيها، وأنه طرده فعاد، وطرده فعاد، وأنه لم يكن يريد قتله. ونظرًا لأن الشاب غريب وينتقل عليه لقضاء مصالحه عَزَّ عليه ذلك، وصاح فى البستانى: لمَ قتلت هذا الجمل؟ وهَزَّهُ هزًا عنيفًا، فخر البستانى صريعًا، ومات هو الآخر، ووقف الشاب مشدوهًا؛ لأنه لم يكن يريد قتله؛ لأنه يعلم أن كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه. ولما علم أولاد البستانى القتيل بأن هذا الشاب قتل أباهم توجهوا به إلى عمر بن الخطاب الحاكم؛ لأن أولاد القتيل لا يجوز أن يأخذوا بالثأر إلا بعد رفع الموضوع إلى الحاكم، حتى لا تكون الأمور فوضى، وعمر هو الحاكم العادل، ووقف الجميع فى حضرته، وقصوا عليه القصة، وبعد أن سمع القصة قال للشاب: ماذا تقول؟ قال الشاب: أنا مقر بجريمتى، معترف بخطئى، وتمت محاكمة الشاب فى المسجد؛ لأن العدالة الحقة تمت فى رحاب المجتمع كله، وحكم على الشاب بالإعدام؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٧٩.

ومَنْ قَتَل يُقْتَل. ورضى الشاب بالحُكم، ولم يتهرب، ولم يحاول أن يدافع بالباطل عن نفسه، ولكنه وقف أمام الجميع، وقال: يا عمر، هل لك أن تفسح لى صدرك وأن تعاونني على تحقيق آخر أمنية قبل أن أفارق الدنيا؟ إننى رجل غريب، وليس هنا أهلى وخِلاَّنى، وعندى ودائع كثيرة للناس أريد أداءها لهم، وكلمة شَرَف مِنِّى أننى سأحضر بعد رد الودائع لأصحابها، وأداء الأمانات لأهلها؛ لأننى لو مِتُّ فى هذه الديار فلن تُرَدَّ الودائع، وسوف أُحَاسَبُ عليها أمام ربى فى يومٍ لا أملك فيه درهمًا ولا دينارًا.

قال عمر رضى الله عنه: أيها الشاب، إن الحق ما تقول، لكن لابد لَكَ من ضامن يضمن عودتك. فقال الشاب: أنا رجل غريب، وليس لى هنا معارف، فهل من ضامن لى أيها الناس؟!

إن الذى يضمن هذا الشاب الغريب الذى يحتمل أنه لن يعود ويهرب مقتول، ووجم الجميع، وسادهم صمت رهيب، وفجأة نهض من ركن المسجد شيخ كبير يصيح: أنا ضامنٌ لهذا الشاب! ونظر الجميع إليه، فإذا به الصحابى الجليل - أبو ذر الغفارى - رضى الله تعالى عنه - وعلى أثر إعلان أبى ذر لضمان الشاب أُطْلِقَ سَرَاحُهُ، وتوجه إلى أسرته لتوديعها ورد الأمانات التى كانت عنده، وبعدَ أن وَدَّعَ الأَهْلَ وَرَدَّ الأمانات توجه إلى المدينة لتوقيع القصاص عليه.

وفى اليوم المحدد لتنفيذ القصاص تجمع الناس فى المسجد وهم يتطلعون إلى أبى ذر الذى جلس هادئًا، وخاف عليه الناس، إنه لا ذنب له ولا جريمة. وانتصف النهار ولم يعد الشاب، واقتيد أبو ذر لتنفيذ الحكم فيه؛ لأن الضامن غَارِم، فطلب أن يودع الدنيا بركعتين، وبينما هو فى الصلاة إذْ لاح فى الأفق غُبَارٌ، وتطلع الناس بأبصارهم إلى هذا الغبار، الذى انكشف بعد قليل عن الشاب وهو يسرع بجمله، إنه جاء وفاءً بعهده، وبَرًّا بوعده، وما إنْ وصل حتى اعتذر عن هذا التأخير غير الـمُتَعَمَّد.

لقد تَعَجَّبَ الناس لهذا الوفاء النادر، شاب يأتى من بلاد بعيدة ليموت وكان فى إمكانه أن يهرب، خاصة أنه ليس معه شرطى، وليس فى يديه حديد، ولكن لا، إن الضمير فى نفسه أقوى من رجل شرطة خلف ظهره، إن يقظة الضمير أقوى من حديد فى يديه، ومع هذا سأله عمر: ما الذى جعلك تبر بوعدك وتحضر؟ فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، إن الشرف هو كل ما أستطيع أن أتقدم به، وإن المسلم لاينكث بعهده، فرد الخليفة: إن الحق ما تقول.

إن احترام العهد هو واجب على كل مسلم، فالشاب الذى جاء ليقدم رقبته حسبما أمر الخليفة، وتطبيقًا للقصاص، كان محل احترام وتقدير من الجميع، لوفائه والتزامه بكلمة الشرف التى قطعها على نفسه، ثم هذا أبو ذر - رضى الله عنه - الذى ضَرَبَ مثلاً رائعًا فى التضحية، ولذلك سأله عمر - رضى الله تعالى عنه -: ما الذى دَفَعكَ إلى ضمانه وأنت لا تعرفه وقد خاطرت بحياتك، فأجاب أبو ذر - رضى الله تعالى عنه -: إننى لما رأيتُ الشاب غريبًا وهو فى محنة شديدة ويتمنى أن يجد المعين له فى تلك اللحظة، رأيتُ من المخجل ألاَّ يجد من يساعده من المسلمين، والواجب يفرض على المسلمين أن يتعاونوا، خاصة فى وقت المحنة، فتقدمت لأكون الضامن برضا نفسى، ووازع من إيمانى.

هذه الكلمات من أبى ذر - رضى الله تعالى عنه - حركت مشاعر الحاضرين، فالتفت الخليفة إلى الشاب مرة ثانية وقال له: وما الذى دَفَعك للحضور وجعلك تبر بوعدك وكان فى إمكانك أن تهرب فى الصحراء؟ قال الشاب: يا أمير المؤمنين، الله يعلم كم ذرفت أسرتى من الدموع، وتعلَّق بى أولادى، وناشدنى أصحابى عدم العودة إلى هنا، غير أننى كنت أعلم أن اللّه يرانى وسوف يحاسبنى غدًا ويقول لى: دنست نفسك ولم تلتزم بكلمة الشرف وكنت من الخائنين؛ لهذا جئت وأنا مطمئن طامع فى عفو ربى ومغفرته، وهذا أحسن لى من كل شىء، أما أولادى فلهم الله، وهم وديعة وأمانة عند من لاتضيع عنده الودائع.

ولقد حركت هذه الكلمات مشاعر الناس، وهزت قلوب الحاضرين، وملأت نفوسهم حماسة، ثم إنهم دَعَوْا لهذا الشابِ الذى تمسك بكلمة الشرف ووفى بها برغم المحاطر وما ينتظره من إزهاق روحه. عندئذ تقدم أبناء القتيل وقد تحركت فيهم عوامل النخوة والشهامة، وهتفوا من أعماق قلوبهم: يا أمير المؤمنين، لقد قتل هذا الشاب والدنا وصاحبناه إلى ساحة العدل والقضاء طالبين القصاص، ولكن بَدَا لنا أن الصَّفْحَ خَيْرٌ، وكما قال ربنا جل وعَلاَ: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ ﴾[1]؟

وبعد مارأينا وما سمعنا عَفَوْنَا وصَفَحْنَا، لعل الله يغفر لأبينا ولنا، وما عند اللّه خير وأبقى.. وقام الجميع إلى الشاب الوفى يهنئونه ويدعون له بالخير، وأبدى الجميع روحًا طيبة، حامدين اللّه شاكرين فضله أن هداهم للإيمان واستنقذهم به من الكفر والفساد وأخذ الثأر الذى هو من أبشع الجرائم فى كل المجتمعات، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[2].

ونحن نرى أن صحة العقيدة تنمى عواطف الخير فى نفوس الناس أجمعين، وصحة العقيدة معناها أن تبعد عن نفسك أى تفكير فى شخص يملك ضَرَّكَ أو نفعك، أو يملك حياتك أو التحكم فى رزقك، إن الذى يملك هذا هو الله رب العالمين. وتأمل فى معانى تلك الآيات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا

(1) سورة النور ـ من الآية ٢٢.

(2) سورة الإسراء ـ من الآية ٣٣.

ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[1].

وتأمل فى قول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

لهذا فإنه يجدر بكل شخص أن يصفى قلبه، وأن يملأه بحب الله تعالى؛ لأنه رب العالمين، ومالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، هو سبحانه الرازق، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن العقيدة الصحيحة تُبْنَى على الاعتراف بالله الواحد الأحد، والإيمان به بأنه الله الذى لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة. وعلى الإنسان أن يُكثر من ترديد لفظ الإله على لسانه ليحيا فى ظل العقيدة سليم الفطرة، نقى الضمير، يخلص العمل، ويجود الصنعة.

والإنسان يبنى من الداخل أولا على هذه العقيدة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ طوال مدة الوحى المكى، أى مدة ثلاث عشرة سنة، يبنى الإنسان الذى به يغزو العالم غدا؛ لهذا كان يردد على أذن أصحابه: «مَنْ قَالَ لا إله إلاَّ اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الجنَّة» قيل: ومَا إِخْلاَصُهَا يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أن تحجزه عن مَحارِمِ الله»، رواه الطبرانى، ويقول عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ: «قال موسى عليه السلام: يَارَبِّ، عَلِّمْنى شَيْئًا

(١) سورة الأنعام ـ الآيات من ٩٥ ـ ٩٨.

(٢) سورة الجاثية ـ الآيات من ٣ ـ ٥.

أَذْكُرُكَ به وَأَدْعُوكَ به: قَالَ: لا إلـه إلاَّ اللهُ. قال: يَارَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هذا، إِنَّمَا أُرِيد شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ. قَالَ: يا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، والأَرَضِينَ السَّبْعَ فى كِفَّةٍ، ولا إلـه إلا الله فى كِفَّة، مَالَتْ بِهِمْ لا إلـه إلا الله». رواه النسائى.

وكان جماعة مع رسول الله ﷺ، فقال لهم: «هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟ قالوا: لا يارَسُولَ الله، فَأَمَرَ بِغَلْقِ البَابِ وَقَالَ: ارفَعُوا أَيْدِيكُم وقُولُوا: لاَ إلـه إلاَّ اللهُ، فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: الحمدُ لله، اللَّهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِى بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِى بِهَا، وَوَعَدْتَنِى عليها الجَنَّةَ، وأنتَ لا تُخْلِفُ الميعادَ، ثُمَّ قال: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفَرَ لَكُم». رواه الإمام أحمد.

وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه: «جَدِّدُوا إيمانكُم» قِيلَ: يَارَسُولَ الله، وكَيْفَ نُجَدِّدُ إيمانَنَا؟ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا إلـه إلاَّ الله».

بهذا المنهج التربوى نَشَّأَ النبىُّ ﷺ أصْحَابَهُ على العقيدة التى شَبَّ عليها الجميعُ، وتمسك بها كل فرد، فعاشوا فى دنيا الناس وقلوبهم موصولة بالسماء، وكان الواحد منهم يهتف من أعماق قلبه:

وممَّا زَادَنِى شرَفًا وَتِيهًا وَكِدتُ بِأَخْمَصِى أَطَأُ الثُّرَيَّا[1]
دُخُولِى تَحْتَ قَوْلِكَ يا عِبَادِى وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِى نَبِيًّا

إن من يتربى على تلك العقيدة الصحيحة ويسلم وجهه إلى الله وهو محسن فى عمله مخلص فى عبادته، مُنِيب لله، مُتَخَلِّقٌ بالأخلاقِ الفاضلة، فقد استَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى، يذهب الخوفُ عن نفسه، ويثبت قلبه، وتهدأ أعصابه، ويمشى بين الناس رابط الجأش، مطمئن النفس؛ لهذا نصيح فى شبابنا: إنَّ العقيدة سلاح قوى، فتسلَّحُوا بها، وتغلَّبُوا بها على مشاكل

(١) الأخمص: باطن القدم. والثريا: مجموعة من النجوم فى صورة الثور، وكلمة النجم عَلَمٌ عليها.

المجتمع، تسعدوا سعادة عظيمة، وتستريحوا راحة توصلكم إلى الهناءة والاستقرار.

الدرس الثانى هو القرآن الكريم:

هو كتاب الله المنزل من علياء السماء بواسطة سيدنا جبريل على قلب سيدنا محمد بلسان عربى مبين. والعرب هم أهل فصاحة وبلاغة وبيان، وكان لسانهم العربى فى أعلى قمة البيان، وقد نزل القرآن الكريم بِلُغَتِهِمْ، وتحدَّاهم أن يأتوا بمثله، فعجزوا، فتدرج معهم فى أقل، فعجزوا، ثم قال لهم: فَأْتُوا بأقلِّ سُورة، فعجزوا فسجل عليهم ذلك العجز. وقال الله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وقد جاء القرآن الكريم بلغه قريش - أفصح لغات العرب - وما إن نزل القرآن حتى ملأ الخافِقَيْنِ علمًا، وانتقل العرب بفضله من جهل إلى علم. لقد كانوا قبل نزوله فى ضلال مبين، كان الجهل قد خيم على عقولهم. وكانوا فى فرقة دائمة، فما إن تنزلت آيات السماء حتى عَمَّ فجاج الأرض نورًا وإشراقًا. لقد رسم لهم معالم الحياة الفاضلة، فجمعهم على الحب إخوانًا فى الله، وألف بين قلوبهم، ووحَّد كلمتهم، وعمهم الرشاد، وصاروا على الحق أعوانًا، بعد أن زال ماراَنَ على أفئدتهم من جهل، لقد أصبحوا بفضله وقد غمرهم السلام والمحبة، والأمن بدل البغضاء، والعداوة، والخوف، والاضطراب.

لقد كان لِسُمُوِّ المعنى الذى يهدف القرآن إليه، وشرف الغرض الذى يدعو إليه، وصفاء الحكمة التى أبرزها، ومراعاة مقتضى الحال، ما جعل العرب يعترفون بأنه فى الذروة العالية فوق كلام البشر، بل لن يتطاول متطاول إلى

---

(١) سورة الإسراء - الآية ٨٨.

مُجاراَة هذا الأسلوب. إن رجلاً كالوليد وهو عربى أصيل، وله ذوق خاص فى الحكم على بلاغة البلغاء ـ عند سماعه لقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

هزت مشاعره تلك البلاغة الفائقة، فقال برغم شركه وعناده: «والله إنَّ له لَحلاَوةً، وإنَّ عليه لَطَلاوَة، وإنَّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَمَا يَقُولَ هَذَا بَشَرٌ».

إن هذا القرآن وإن كان سَماوىَّ المطلع، علوىَّ المتنزل فإن من قرأ فيه كأنما يقرأ طوية نفسه الطاهرة، ومن استمع إليه كأنما يسمع همس خاطره النقى، وهذا ما نلحظه من قصة إسلام عمر بن الخطاب، الذى كان من أشد الكفار مجاهرة بالعداوة للنبى ﷺ، ومع هذا فإن عمر عندما سمع بإسلام أخته وزوجها ذهب إليهما والشرر يتطاير من عينيه، وقد أضمر فى قلبه أن يفتك بهما، فلما قَرَأَ سورة «طه» ذهب الغضب من نفسه، وهدأ قلبه، واستولى على فؤاده جمال ما يهدف إليه مضمون هذا الكلام، علاوة على أن هذا الأسلوب ليس فى مقدور بشر، وهذا الكلام يهدى لِلَّتى هِىَ أَقْوَمُ، فأعلن إسلامه، ودخل فى الدين، وأخلص لله، وأحب الداعية الأول حُبا مَلَكَ عليه كل ذرة فى حياته، بل إن رجلا من البدو سجد لفصاحة القرآن.

إن هذا الكتاب الذى أنزله رب العالمين وجعله للإنسانية جمعاء، له من الاعتبارات المادية والقيم الروحية ما يجعل له المكانة الأولى بين الكتب العالمية، والشرائع السماوية، والقوانين الوضعية أيًا كان واضعها، ولقد كان للتأثير الذى أحدثه فى الحياة العقلية والاجتماعية فى النوع الإنسانى كله ما أيقظ الشعور العالمى، ونهض بالبشرية إلى المستوى اللائق بها، فحدَّدَ العلاقة بين الفرد والفرد، وبين الفرد والمجتمع، وبين المجتمع والمجتمع، إن القرآن لم يَدَعْ

---

(١) سورة النحل ـ الآية ٩٠.

أصلاً من الأصول التى تجمع بين الغايات والمقاصد المتنوعة، وتقرب بين العقائد المختلفة، وتلم شتيت النوازع النفسية، إلاَّ دعا إلى تحكيم العقل، وأمر بالانصياع إلى ما يوجبه التفكير الرشيد والنظر السديد، ويقصد القرآن من وراء ذلك إلى أن جميع قُوَى العقل تؤدى وظائفها، وأن يكون العقل فى نشاط دائم، حتى تصبح شخصية الإنسان متكاملة مدركة لكل ما حولها، فيكتسب الإنسان بعقله حصانة طبيعية تفتح له آفاق الكون المحيط به.

إن أى وسيلة لتحرير الفكر وإيقاظ العقل قد دعا إلى الأخذ بها؛ ليكون الإيمان برب الكون ناشئًا عن نظر صحيح فى الكون، عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، والإنسان ـ وهو يستنتج ذلك ـ يستعين بمن حوله من أولى الأبصار، وهو ينطلق فى حياته يلتحم بالسابقين، فينهل من معارفهم، ويؤثر فى اللاحقين بنتاج عقله؛ لأنه فى مسيرته لا ينفصل عن بنى جنسه. وهذا ما أرشدنا إليه القرآن الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١).

ويقول الحق: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢).

وفى آية أخرى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٣).

يقول الفيلسوف الفرنسى الكسى لوازون فى كتابه «حياة محمد»: «خلف محمد للعالم كتابًا هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثًا مسائل تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية».

ويقول هرشفلد ـ « لم تنتقل أُمَّة من الهمجية والبداوة إلى الحضارة والمدنية بمثل السرعة التى انتقل بها العرب بظهور محمد، وإنما كان ذلك بفضل القرآن الكريم واعتناقهم الدين الإسلامى».

---

(١) سورة طه ـ من الآية ١١٤.

(٢) سورة يونس ـ من الآية ١٠١.

(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٢١.

وقال أيضًا: «ليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة أنواعها ونواحيها فى العالم الإسلامى».

ويقول استنجاس وهيوز: «يمكننا أن نقول بكل قوة: إن القرآن الكريم أعظم كتاب فى تاريخ البشر؛ فهو يتكلم عن الله بكل جلال ووقار، فيسمو بخيال العرب المجبولين بفطرتهم على الشعر، فيخرون إلى الأذقان سُجَّدًا، ويزيدهم خشوعًا لعظمة الإله، رغبة فى رحمته، وخشية من عقابه، وإنه لَمَسَ المشاعر بلغة سهلة جزلة، لا تَكَلُّفَ فيها ولا تعقيد، عندما يؤنس الرسول ويشجعه على أداء رسالته، وعندما يقص عليه من أنباء الرسل ما فيه عبرة ومزدجر، كذلك عندما يتغلغل فى صميم الحياة الخاصة والعامة ليجعلها تتمشى مع المبادئ الأساسية التى أمر بها الدين الجديد، وهنا لا يصح أن نقيس القرآن بأى كتاب آخر من كتب الأدب من حيث عذوبة اللغة وطلاوتها، وإنما نقيسه بالثورة التى أحدثها فى نفوس المعاصرين للنبى ﷺ، فقد نفذ القرآن إلى قلوب سامعيه بكل قوة وإقناع، واجتث من ثناياها كل ما كان يتأصل فيها من وحشية، وانتزع كل همجية، فأوجد ببلاغته وبساطته أُمَّةً متمدينة راقية ناهضة، بعد أن كانت متبدية متخلفة همجية».

إن الفضل ما شهد به الأعداء، وكان من فضل الله ورحمته بالإنسانية أن جعل له من الاعتبارات المادية والقيم الروحية ما يجعل له الهيمنة على الكتب السابقة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[1].

إن هذا الكتاب ليس للعرب وحدهم، بل هو للإنسانية جمعاء، ومعجزته مستمرة وقائمة من وقت نزوله وإلى أن تقوم الساعة. إنَّ الإعجاز اللغوى والبلاغى بَهَرَ العربَ وغيرهم، وكذا تصحيح ما فى الكتب السابقة، ثم التنبؤ بأحداث ستقع مستقبلا، كحرب الروم والفُرْس، والإخبار بنصر الروم، ثم إنه معجزة للبشرية كلها، فقد كَشَفَ مسبقًا أسرارَ هذا الكون، فى وقت لم يكن يعرف المعنى الحقيقى لبعض آياته إلا بعد الوصول إلى أمور مادية ينتصر العلم بالتعرف على أسرارها، ويصل إلى مرتبة اليقين، بحيث لا تتصادم مع الحقائق الثابتة، إن آيات القرآن شاهدة ومؤكدة لهذا، وهذا من سر إعجازه الدائم، وهذا ما شهدت به الأحداث ولا تزال، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن هذا الكتاب الذى انتظم من العقائد الصحيحة والآداب الكثيرة والأخلاق الفاضلة والدعوة إلى العمل الصالح كفيل بسعادة البشر فى دنياهم الحاضرة وحياتهم الثانية لو أنهم تخلقوا بما شرع، وهو دواء شافٍ لجميع الأمراض الخُلُقِية، وحل المشاكل الاجتماعية.

هذا القرآن كان الصحابة يحفظون فى صدورهم ما ينزل من آياته. لقد حفظته العقول الواعية قبل أن يُجْمَعَ فى الصُّحُف، وكانت الآية إذا نزلت أو السورة تسابق الصحابة فى حفظها، وكل صحابى ينقلها إلى الآخر. كانوا يحفظون ذلك لأولادهم ولزوجاتهم؛ ليتخلق الكل بما أرشدت الآية إليه.

إنَّ النبى ﷺ إمام المسلمين وقدوتهم لم يكن فى صحبته للقرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى عليه يسمع الجملة القرآنية، بل الكلمة يتنزل بها جبريل على قلبه وسَمْعِه، حتى يرددها على لسانه؛ ليزداد تذوقا لحلاوتها، وريًا من

---

(١) سورة المائدة ـ الآيتان: ٤٨ و ٤٩.

رحيقها، ولذا كان يجد النشوة الروحية والنعيم النفسى فى اتصاله بالقرآن الكريم، وكان يعطى كُلَّ حاسة من حواسه حظها من الاتصال بالقرآن، فإذا فاض قلب النبى ﷺ بنور القرآن وطعم لسانه منه كان لأُذُنه كذلك نصيب، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَىَّ فَقُلْتُ: أَعَلَيْكَ أَقْرَأُ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: إِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِى، قَالَ ابن مسعود: فَافْتَتَحْتُ سورة النساء، فلما بلغت قول الله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1]. رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ، ثم قال: حَسْبُكَ».

ولقد تعلم صحابة رسول الله ﷺ هذا من نبيهم، وكان القرآن الكريم حياتهم كلها، يَصِلُونَ ليلهم بنهارهم فى ترتيله وتدبُّر ما فى آياته وكلماته، وكانت الساعة التى يقضيها الواحد فى تلاوة القرآن أو الاستماع إليه خيرًا مما على الأرض من متاع وزينة وسلطان، وكان بعض الصحابة يحاول ختم القرآن مرة بالليل وأخرى بالنهار، لكن النبى ﷺ ـ وقد جاء بالدين اليسْرِ، والشريعة السمحة ـ وَجَّهَ الصحابة إلى التأنى فى التلاوة والتدبر فى آيات الله؛ ليصلوا إلى تلك الإشارة المضيئة التى تفتح عقولهم، وتضفى الأمل فى نفوسهم؛ ولذا كان توجيه النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص الذى قال: قلتُ يا رسولَ الله، فى كَمْ أَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قال اختمْهُ فى شهر. قُلْتُ: إنى أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قال: اختمه فى عَشْرٍ. قلتُ: إنى أُطيقُ أفضل ذلك، قال: اختمه فى خمس، قلت: إنى أطيق أفضل من ذلك، فما رَخَّصَ لى». رواه أبو داود.

إن الله يسر القرآن وفهمه لمن اتصل به روحيًا وعقليًا وقلبيًا إذا حاول التدبر والفهم العميق لآياته. والناس على حظوظ مختلفة، كلٌّ على حسب ما عنده من استعداد عقلى وروحى للتلقى عنه والأخذ منه، فإن كل إنسان له نصيب ـ قَلَّ أم كَثُرَ ـ فمن ورد على القرآن بقلب سليم ونية صادقة أصابَ خيرًا وتزود

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٤١.

بزاد طيب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].

وتكرار هذه الآية أربع مرات فى سورة القمر يدل على ما فى القرآن من خير عظيم، ومع يُسر القرآن فهو لا يسمح بخيره إلا لمن كان له قلب حاضر يخشع لعظاته ويتدبر فى آياته؛ ليكون ممن وصفهم الحق بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2].

أما من يقرأ القرآن بلسان بينه وبين قلبه حجاب، أو يستمع إليه بِأُذُنٍ مضروب بينها وبين القلب سُور، فإنه لا يستفيد من القرآن، ولا ينتفع من تلاوته، ولا حياة لقلبه الغافل.

والقرآن الكريم وَحَّدَ الأُمَّة وسَمَا بها عندما اتصلت به، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى الرجوع إلى هذا القرآن الذى يهذب النفوس، ويرقق القلوب، ويوجه الأنظار إلى الحقائق المبثوثة فى الكون الفسيح، وهو ليس كتاب العلماء وحدهم، ولا كتاب الفقهاء وعلماء الدين فقط، وليس كتاب طبقة أو طائفة أو جنس - لا - إنما هو كتاب الله الخالق إلى الناس جميعًا بلا استثناء، فالناس جميعًا فيه شركاء، ومع هذا فالقرآن يقيم من ذاته حراسة قوية على آياته وكلماته، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[3].

هذا، ولقد سمع أعرابى قارئًا يقرأ: وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيم. فقال الأعرابى: ما هَذَا؟ فقيل له:

(1) سورة القمر - الآية ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠.
(2) سورة الزُّمَر - من الآية ٢٣.
(3) سورة الحِجْر - الآية ٩.

قرآن. فقال ما هَذَا بقُرآن. فَتَنَبَّهَ القارئُ عند ذلك وقَرأَ الآيَةَ على وَجْهِهَا الصَّحِيح: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[1].

فقال الأعرابى أَمَّا ذا فَنَعَمْ، هُوَ كَلاَمُ الله، عَزَّ، فَحكَمَ فَقَطَعَ.

والأعرابى الآخر الذى سأل عن النبى ﷺ ودعوته التى يدعو إليها، وعن القرآن الذى يقرؤه على الناس، وكيف صح عنده أنه نبى؟ فقال: ما أَمَرَ بشىءٍ فقال العقلُ لَيْتَهُ لم يأمر به. ولا نَهَى عن شىء فقال العقل ليته لم ينه عنه.

إن التاريخ لم يعرف كتابًا ـ أيًا كانت منزلته ـ لقى من الاهتمام والعناية مالقيه القرآن الكريم من عناية أتباعه واهتمامهم به والتفافهم حوله، يتدارسون آياته، ويستنبطون أحكامه، بل بلغت عناية المسلمين به أن عدوا حروفه حرفًا حرفًا، وكلماته كلمة كلمة، وآياته آية آية، وردوا حروفه إلى حروف المعجم، ثم حصروا خط كل حرف من تلك الحروف، ولم يكن هذا اهتمام المسلمين وحدهم، بل شارك كثير من غير المسلمين لغايات وأغراض مختلفة، بعضها لحساب الحق، وبعضها من أجل الباطل.

هذا هو القرآن، وتلك الحراسة الحافظة القائمة عليه من ذاته بما أودع الله تعالى فيه من أنوار الحق المشرقة، وليس فى وسع بشر أن يحيط بشأن القرآن الكريم وما احتواه، من أسرار؛ لأنه تنزيل من رب العالمين.

إنه كتاب الدهر كله؛ ماضيه، وحاضره، ومستقبله، فمشاكل المجتمع المتعددة وقضاياه المتنوعة يقف منها موقف الحكَم العدل الذى يسوى بين الخلق، ويقضى بينهم بالحق، ويرفع معالم الهدى، ويثير دوافع الرحمة فى النفوس، ويمسك بزمامها بما احتوى من قوة الجذب والتأثير؛ لأنه سراجٌ وَهَّاجٌ تنجذب النفوس حوله، وتدور فى فلكه؛ لأنه يمسك بها مضيئة بالإيمان، مشرقة بالحق، آمنة بالخير، مطمئنة له، إن القرآن الكريم بيان للناس، وهدى وموعظة للمتقين.

---

(١) سورة المائدة ـ الآية ٣٨.

والقرآن يسرد لنا في سياقه الكثير من القصص؛ لأن في القصة ترويحًا عن النفس، وتسرية لها، وترقيقًا لنوازعها، وهي لون محبب إلى النفس؛ لما فيها من متعة فكرية، وهي تنمي الأخلاق الفاضلة في أعماق الإنسان، حيث تضيء ظلام القلب. والقرآن يعرض نماذج متعددة لمن تحسن بهم القدوة، وقامت فيهم العبرة، وما أجمل القصص القرآني وهو يمتزج بالفطرة الإنسانية، فينطلق بها في ميدانها الفسيح، وصدق الله العظيم: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

وإذا كانت التربية الحديثة الآن تعنى بتقديم بعض القصص على لسان الحيوانات والطيور، وذلك بهدف تنمية الفكر، والتأثير في النفس، وإرشاد القلب والعقل معًا، وغرس نمط معين من الأخلاق في نفسية الفرد عن طريق هذا المسلك، فإن القرآن الكريم كان أسبق ممن فكر في هذا الأسلوب، ولنا في قصة النملة مع سليمان، وكذلك الهدهد، ثم مملكة النحل التي أَوْحَى إليها رب الكون بأن تَتَّخِذَ من الجبالِ بُيوتًا ومن الشجر كذلك، في كل هذا ما يؤكد أسبقية القرآن في هذا المجال.

لهذا يجدر بنا أن نعود إلى القرآن الكريم نجعله ربيعَ قلوبنا، وبهجة نفوسنا، نتلوه ونعلمه لأولادنا، ونُعَوِّدهم على التزود منه؛ لأن القرآن الكريم إذا لازمه الإنسان واتخذه سميرًا وأنيسًا، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، كان صافي النفس، رقيق الحس، صادق الرأي، وصدق الله العظيم إذْ يُقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2].

وفي حديث رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤْمنِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَل الأَتْرُجَّة، ريحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا طَيِّبٌ... والذي يَقْرَؤُه ويَتَعْتِعُ فيه[3] وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لَهُ أَجْرَان».

(١) سورة النحل - من الآية ٣٦.

(٢) سورة الإسراء - من الآية ٩.

(٣) تَعْتَعَ في كلامه، أو قراءته: تَرَدَّدَ في عِيٍّ، ووجد صعوبة في القراءة.

وقد سُئل سفيان الثورى عن الرجل يغزو أَحَب إليكَ أو يقرأ القرآن؟ فقال: يقرأ القرآن ويُعَلِّمُهُ؛ لأن الحديث يقول: «خَيْرُكُمْ مَنْ تعلَّم القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وفى حديث لأبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ، عَلِّمَ النَّاسَ القُرْآنَ وتَعلَّمْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ وَأَنْتَ كَذلِكَ زَارَتِ الملائكةُ قَبْرَكَ كَمَا يُزَارُ الْبَيْتُ العَتِيق».

يقول القرطبى: قال العلماء «تَعَلُّمُ القُرْآنِ أفْضَلُ الأَعْمَالِ؛ لأَنَّ فيه إعانةً على الدِّينِ، فهو كتَلْقِينِ الكَافِرِ الشَّهَادَةَ ليسلم. . .»

وإذا كانت القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقد سُئل رسول الله ﷺ عن الذى يجلوها، فأجاب: تِلاَوَةُ القُرْآن؛ فإن هذا يدفعنا أن نقبل على القرآن نقرأ فيه ونُعلمه لأولادنا، وأن نعمل على إعادة الكتاتيب؛ لأنها هى التى علمت الأجيال، وحافظت على القرآن الكريم. وإذا كانت الإنسانية اليوم اضطربت أحوالها، وأصبح هناك قلق نفسى، وكآبة فكرية تعم المجتمع، فسبب ذلك غياب القرآن عن مجتمعنا الإنسانى، فلو أن البشرية رجعت إليه لهدأت النفوس، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

وفى آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

وكذلك قول الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[3].

فإلى المنصرفين عنه أن يعودوا إليه، إلى التائهين فى بيداء الحياة أن يبصروا

(١) سورة الأنعام - الآية ١٥٥.

(٢) سورة الأعراف - الآية ٩٦.

(٣) سورة المائدة - من الآية ٦٦.

الحق على نوره، وعلى الغافلين عن لقاء الله أن يدركوا أن بَعْدَ الدار دارًا فيها الحساب على ما قدمه الإنسان من عمل، وبَعْدَ الحساب إمَّا جنة أو نار: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[2].

قال عمرو بن العاص: كل آية فى القرآن درجة فى الجنة، ومصباح فى بيوتكم، ومَنْ قرأ القرآنَ أُدْرِجَتِ النُّبوة بين جنبيه إلاَّ أنه لا يُوحَى إليه. وقال أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه :ـ إن البيتَ الذى يُتْلَى فيه القُرْآنُ يَتَّسِعُ بأهله، ويكثرخيره، وتحضره الملائكة، وتخرج منه الشياطين، وإن البيت الذى لا يُتْلَى فيه القرآن يضيق بأهله، ويقِل خيره، وتخرج منه الملائكة، وتسكنه الشياطين. ويقول الفضل ابن عياض: ينبغى لحامل القرآن ألاَّ يكون له إلى أحد حاجة، ولا إلى الخلفاء فمن دونهم، فينبغى أن تكون حوائجُ الخلق إليه. وحامِلُ القرآن حاملُ راية الإسلام، فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظمًا لحق القرآن.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: قلت لبعض النُسَّاك: ما ها هنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا؛ لأن القرآن أنيسٌ للإنسان فى كل حال. وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: لقد عشنا دهرًا طويلا، وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغى أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدخل.

وجاء فى التوراة: يا عبدى، أَمَا تَسْتَحِى منى؟ يأتيك كتابٌ من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه

---

(١) سورة الزلزلة ـ الآيتان: ٧ و ٨.

(٢) سورة ص ـ الآيتان: ٨٧ و ٨٨.

وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك شىء منه، وهذا كتابى أنزلتُه إليكَ، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت مُعْرِضٌ عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدى، يقعدُ إليك بعض إخوانك فَتُقْبِلُ عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلمَ متكلمٌ أو شغلكَ شاغلٌ عن حديثه أوْمَأْتَ إليه أَنْ كُفَّ، وهاأَنَذَا مُقْبِلٌ عليك ومَحَدِّثُكَ وأنت مُعْرِضٌ بقلبك عنى، أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك؟[1].

إن القرآن الكريم لم ينزل ليُتْلَى للأموات عند تجمُّع المعزين، ولا عند المقابر بقصد تنزل الرحمات على الأموات، ولا ليُعَلَّق على الصُّدُور فى حلية ذهبية، أو يكتب فى صحيفة واحدة ويوضع فى براويز مزركشة، ثم يكون على الحائط بهجة للعين، أو للإعلان على أن صاحب المحل طيب أمين. وقد يكون هو غر مخادع خائن، أو أن يوضع فى علبة قطيفة، ثم يكون على المكتب أو فى السيارة، أو ما شَاكَلَ ذلك، لا، وألف مرة ـ لا ـ لم ينزل القرآن لهذا، وإنما نزل ليكون فى القلوب محفوظًا، ويترجم إلى عمل فى ميدان الحياة الاجتماعية.

إن التاجر الأمين الصادق الذى يوفى الكيل والميزان ولا يبخس الناس أشياءهم، والموظف الإيجابى فى عمله الذى يقوم بأداء العمل بأمانة دون تهرب من المسئولية، ولا يأخذ الرشوة، ولا يقبل الهدية إنْ كان فى قبولها تضييع لحق آخر، أو إهمال فى أداء واجب، والصانع الذى يُتقن صنعته، ويجود عمله، ويفى بوعده، ولا يتهرب من العمل، بأخذ إجازات مرضية بدون مرض فى جسمه، وإنما يتحايل ليقوم باللف والدوران فى الشارع أو الجلوس على المقاهى... إن التاجر الأمين، والموظف الإيجابى، والصانع الذى يضبط وقته ويراقب ربه، كل واحد منهم قرآنٌ يمشى فى المجتمع على قدميه، والحياة تسعد بهم، ويستتب فيها الأمن؛ ولذلك عندما سُئِلَت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُه القُرْآن» إن القرآن رحمة للأحياء قبل أن يكون رحمة للأموات، ومن لم يرحم نفسه قبل موته بالعمل فلن تنفعه تلك القراءة أبدًا، بل تكون القراءة سببًا فى زيادة عذابه إذا قُصِدَ بها الافتخار والزهو.

وصدق الله العظيم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1].

يقول قتاده: «لم يُجالسْ أحَدٌ هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان» قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2].

ويقول بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا مِنْ قِبَلِ ربنا عز وجل بعهوده، فيجب علينا أن نتدبرها فى الصلوات، ونقف عليها فى الخلوات، وننفذها فى الطاعات. وقال بعض العلماء: إن من يقرأ القرآن ولم يتصف بأخلاق القرآن، كلما قرأ ناداه الله تعالى: مَالَكَ وَلِكَلَامِى وَأَنْتَ مُعْرِضٌ عَنِّى؟ دَعْ عَنْكَ كَلامِى إنْ لَمْ تَتُبْ إلىَّ.

فهلموا إلى القرآن يا رُوَّاد المسَاجِدِ، فإن القرآن أساس لكل خير، وهو ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

وإذ يقول: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[4].

ولنعلم أن رسول الله ﷺ حذرنا من أشياء تبعدنا عن القرآن، منها ما جاء فى الحديث الذى رواه ابن أبى الدنيا، عن رسول الله ﷺ قال: «إذَا عَظَّمَتْ

---

(١) سورة المدثر ـ الآية ٣٨.

(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٨٢.

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٨.

(٤) سورة الجاثية ـ الآية ٢٠.

أَمَّتى الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ نُزِعَ منها هَيْبَةُ الإسْلاَمِ، وإذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ». قَالَ الفَضْلُ: يَعْنِى حُرِمُوا فَهْمَ القُرْآنِ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

وإننا نهيب بالمسئولين عن دور الحضانة ومراحل التعليم المختلفة حتى الشهادات المتخصصة أن يجعلوا للقرآن الكريم الأولوية فى الدراسة، وأن يخصصوا له حصصًا معينة، حتى يتعود أبناؤنا وشباب الأمة ـ الذين هم رجال الغد، والذين سيتحملون مسئولية الأمة وقيادتها ـ على فهم الدين، وإتقان اللغة العربية، وتَعَوُّد لسانهم النطق الصحيح، ثم ليكونَ فى القلب نورًا، وعلى اللسان عفة، وللعقل صيانة، وللعمل الجاد البناء دافعًا.

إنَّ الوَازِعَ من الضمير ينمو فى ظل الحياة الروحية الطيبة، وفى معايشته للقرآن، وهذا ينسحب على الفتاة كذلك؛ لأن تعليم الدين ومُدَارَسَةَ القرآن هو لكل مسلم ومسلمة، وصدق الله العظيم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

* * *

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٢٣١.

(٢) سورة ق ـ الآية ٨.

(٣) سورة النحل ـ الآية ٩٧.

الفصل الرابع

المسجد ووظيفته:

وظيفة المسجد فى المجتمع أن يُذْكَرَ فيه اسم الله، حسبما جاء فى قول الله سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾[1].

وفى هذا المجتمع الطاهر الصافى من الأحقاد ـ لأن الصلاة تغسل القلب وتطهر النفس ـ يمكن أن يكون المسجد:

١ ـ مجلس شعب:

ورواده هم الأعضاء الذين يمارسون نشاطهم داخل وخارج المسجد، وقد وصفهم الحق بقوله: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾[2].

فهو ـ إذَنْ ـ بمثابة برلمان دائم، يصون للأمة كرامتها، ويصقل النفوس؛ لتكون متيقظة فى كل وقت، من على منبره تلقى التوجيهات، ويحضر الحاكم بنفسه مع الرواد فى كل صلاة جامعة يلقى بيانه أمامهم، وهو ما نسميه خطاب

---

(١) سورة النور ـ الآيتان: ٣٦ و ٣٧.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية ١١٢.

العرش الذى يلقى عندما يتولى الحاكم مهام الدولة، يعرض سياسته، ويحدد منهجه، ويطلب من الأُمة باسم الأمانة أن يساعدوه فى أداء الرسالة، ويحاسبوه إنْ أخطأ، ويُقَوِّمُوهُ إن اعوجَّ؛ لأن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

والمؤمن مرآة أخيه، وأبو بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ رسم هذا المنهج، ووضع هذه القاعدة الأساسية. لقد خطب عندما تولى الخلافة فقال: إنِّى وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإنْ رأيتُمونى عَلَى حَق فَأَعِينُونِى، وإنْ رأيتُمونِى على باطلٍ فَقَوِّمُونِى، وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول: رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَهْدَى إلينا عُيُوبَنَا.

وكان هذا دأب الخلفاء والأمراء والحكام أيام الدولة الزاهرة، وأيام أن كان للمسجد هيمنته على كل مرافق الحياة، تنبع منه وتشع فى جوانب المجتمع ثقة متداولة بين الحاكم والمحكوم. ولقد روى التاريخ أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: لو رَأَيْنَا فيك اعوجاجًا لَقَوَّمْنَاكَ بِحَدِّ سُيوفِنَا، وإذا بعمر يقول: الحمد لله الذى جعل فى أُمة محمد مَنْ يُقَوِّمُ اعْوِجَاجَ عمر.

إنّ الأمة لو رجعت للمسجد الجامع واتخذته مقرًا لأن يجتمع فيه أعضاء مجلس الشعب مرة كل عام على الأقل وناقشوا مع الجميع بروح الحب والثقة مشاكل المجتمع بقلب مفتوح، لوُضِعَت الحلولُ الصحيحة لكثير من المشاكل؛ لأن الراية التى سترتفع فى المسجد: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1].

إن بعض الناس لهم مشاكل ولا يستطيعون الوصول للنائب لعرضها عليه، فلو كان المسجد الجامع فى كل محافظة يتم فيه اللقاء المفتوح، واستمع النواب إلى تلك المشاكل، وعلا صوت: نريد أن يكون التعاون حليفنا، وحُب الخير رائدنا، وقول الرسول ﷺ أمامنا، وهو: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ

(١) سورة المائدة ـ من الآية الثانية.

ما يَحبُّ لنَفْسه» لَقُضِيَ على المشاكل، واختفت الصور الباهتة من حياتنا، فهل آنَ الأوانُ أن نضع مثل هذا الموضوع أمامنا ونناقشه بروح الجد حتى يعود للمسجد دوره، ويكون مصدر إشعاع فى المجتمع كما كان، وكما هو المراد منه؟ نرجو ذلك من الله.

٢ - مجلس محافظة:

إن التقسيم الإدارى فى الأقاليم الآن، والذى حدث نتيجة الاتساع العمرانى، جعل الاتجاه أن يكون فى كل محافظة مجلس يدير شئون المحافظة، ويساعد كافة الأجهزة المعنية، مع وضع الخطط المتكاملة للوصول إلى أحسن النتائج فى كل المجالات. ولما كان مجلس المحافظة مجلسًا محليًا، يقوم بدراسة المشاكل البيئية، ويضع الحلول لعلاج كافة الأمراض الاجتماعية والخُلقية فى تلك البيئة - فإن هذا المجلس يتم بالانتخاب من القاعدة الشعبية، فياحَبَّذَا أن يجتمع هذا المجلس بين الحين والحين فى المسجد، وينتقل فى الكثير من المساجد؛ لتكون رؤيته للمشاكل حقيقية، ورؤيته لها على الطبيعة، وهو يلتقى بأصحاب المصلحة أنفسهم، وإذا كان من المفروض على الحاكم أن يلتقى بالمحكومين فهذا أنسب مكان يلتقى فيه المحافظ ومن معه من المساعدين؛ لأن المسجد هو أنسب مكان وأصلح بيئة لتلك اللقاءات - ويُقاس على ذلك مجلس محلى القرية، ومجلس الجمعية الزراعية، وما شاكل ذلك من الجمعيات الخيرية والاجتماعية التى تسعى لكل هدف نبيل من شأنه الارتقاء بمستوى الأمة فى أى اتجاه؛ لأن الصلوات الخمس التى تقام يوميًا فى المسجد فى الإمكان أن يمكث الرواد بعدها دقائق للاستماع إلى تقرير يعرض عليهم، وكُلٌّ يدلى برأيه بأمانة وإخلاص.

والمسجد بهذا الحشد يمثل أكبر مجتمع للجمهور.. إن الناس فى عهد عمر ابن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - غالوا فى مهور النساء، وأحجم الشباب عن الزواج لتلك المغالاة، فأراد عمر أن يضع أعلى حد للمهر، فأعلن ذلك على المنبر، وبينما هو يقول هذا الرأى إذْ وقفت له امرأة وقالت: كيف تقول

هذا والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

فما كان من الخليفة إلا أن رجع عن رأيه، وقال: أصابت المرأة وأخطأ عمر! فهل رأت الإنسانية مجتمعًا فاضلا كهذا الذى تَرَبَّى بين جدران المسجد، وعلى مائدة الصلاة التى تُربِّى الإنسان من الداخل على الصفاء، والثبات على المبدأ، وتطهره من الخارج، وتصقل نفسه بنور الإيمان، وتقوى فيه العزيمة والدفاع عن الحق.

٣ - بيت المال أو وزارة المالية:

كان المسجد هو المكان الذى تُجْبَى إليه الزكاة، ثم يتم توزيعها على المستحقين، وكذلك الفَىْء والغنائم، وكل دخل للدولة توضع فيه، وهذه كانت موارد الدولة، وقد وَرَدَ عن أَنَسٍ: أَنَّ مالاً من البحرين جاء للنبى ﷺ، وكان أكثر مالٍ أتى به، فأمر بنثره فى المسجد، ولما انتهى من الصلاة وَزَّعَهُ كله ولم يُبْقِ منه شيئًا. وبهذا يكون المسجد وعاءً للزكاة، وتفريغًا منه للمستحقين، وهو بهذا يمثل وزارة الشئون الاجتماعية؛ لأن التكافل الاجتماعى لم ينبع إلا من المسجد.

ونستطيع أن نقول: إنه يمكن لكل مسجد أن ينشئ جمعية خيرية، ويقوم بعمل حصر لأفراد المنطقة الأغنياء؛ ليدفعوا زكاة أموالهم، والفقراء ليأخذوا حقهم من مال الأغنياء الذى يُجْمَعُ فى المسجد؛ ليكون الجميع فى جو كله تعاون وأخوة ومحبة، الغنى يأمن على ماله، فلا سَطْوَ ولا اعتداء على ماله؛ لأنه حَصَّنَهُ بالزكاة، والفقير لن يحتاج إلى السرقة واللصوصية والاعتداء؛ لأن حقه يصل إليه، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[2].

(١) سورة النساء ـ الآية ٢٠.
(٢) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٣.

فالجو كله صفاء، وحصْنٌ حصين؛ لأنه جاء فى الأثر: حَصِّنُوا أمْوَالَكُم بالزكاة، وداوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، واستقبلوا أمواجَ البلاءِ بالدعاء والتضرع.

المسجد يعلم كل فرد الكرَمَ والسَّخَاء والجودَ والإحسان والإنفاق فى أوجه الخير؛ لأن حديث السماء يرن فى أذنه: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

إن المسلم مُطالَبٌ بالإنفاق فى أبواب الخير: من إطعام اليتيم، وكسوة المسكين، وسد حاجة الأرملة، والتوسعة على ابن السبيل. وعليه أن يجتنب الإنفاق فى أبواب الشر والملذات الزائدة عن الحد؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾[٢].

ويقول: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ ﴾[٣].

إن المال فى يد الإنسان امتحان له واختبار، هل هو بهذا المال يحمد الله ويشكره، والشكر يزيد النعم، ومنَ الشكر أن يتجه الغنى بماله إلى مشروعات الخير، مثل بناء المساجد، وإنارتها، وفرشها، وإدخال المياه إليها، والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم، والتيسير على العلماء؛ ليتفرغوا للعلوم يمحصونها ويبتكرون فى أسلوبها، وكذلك المستشفيات، والعلاج، والأطباء، وشق الطرق، وهذه الأعمال من الأمور المحمودة المباركة التى دَعَا إليها الإسلام ورَغَّبَ فيها، وصوت الإمام هو الذى يعلو بهذه الدعوة من فوق المنبر بين الحين والحين يُذَكِّرُ الناس بقول الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا

---

(١) سورة آل عمران ـ الآيتان: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٢٧.

(٣) سورة الأعراف ـ من الآية ٣١.

﴿لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم الْقَدْرَ الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله سوف يحاسبهم حسابًا شديدًا ويعذبهم عذابًا أليما. وحديث أَنَسٍ الذى رواه الطبرانى عن رسول الله ﷺ يقول: «ويْلٌ للأغنياء مِنَ الفُقَراءِ يوم القيامة، يَقُولُونَ: رَبَّنَا ظَلَمُونَا حُقُوقَنَا التى فَرَضْتَ لنا عليهم. فيقولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: وعِزَّتى وجَلاَلى لأُدْنِيَنَّكم ولأُبَاعِدَنَّهُمْ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[2].

إذا كان المسجد يوجه إلى هذا فإن صوت الإمام كذلك يدعو الفقراء إلى العمل، والسعى فى مناكب الأرض، والأخذ فى الأسباب: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾[3].

وإلا فإن الإنسان لا يَيْئَسُ ولا يقنط، ولا يتضجر، ولا يطلب رزق الله بالمعصية وارتكابها، بل عليه أن يكون وَقَّافًا عند حدود الله وله همة عالية؛ لأن الغنَى غِنَى النفس. وقد جاء فى حديث ابن حبَّان عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أَبَا ذَرّ، أتَرَى كَثْرَةَ المال هُوَ الغنَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ يا رَسُولَ الله. قَالَ: أَتَرَى قِلَّةَ المَال هُوَ الفقرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يا رَسُولَ الله. قَالَ: إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ القَلْبِ. فشعور الإنسان بالعزة، واحتماؤه بحمى الله، واعتماده عليه هذا هو الغنى.. ومَا أَرْوَعَ ما قاله الإمام علىٌّ كَرّمَ الله وجهه:

---

(١) سورة التغابن ـ الآيات من ١٥ ـ ١٧.

(٢) سورة المعارج ـ الآيتان: ٢٤ و ٢٥.

(٣) سورة الطلاق ـ من الآيتين: ٢ و ٣.

صُنِ النَّفسَ واحمِلْهَا عَلَى ما يزينُهَا   تَعشْ سَالمًا وَالْقَوْلُ فيكَ جَميلُ
ولا تُرِيَنَّ النَّاسَ إلاَّ تَجَمُّلاً   نَبَا بِكَ دَهْرٌ أوْ جَفَاكَ خَلِيلُ
وَإِنْ ضَاقَ رِزْقُ اليومِ فَاصْبِرْ إلى غَدٍ   عَسَى نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ
يَعِزُّ غَنِىُّ النَّفْسِ إِنْ قَلَّ مَالُهُ   ويَغْنَى غَنِىُّ المَالِ وَهْوَ ذَلِيلُ

ويقول الآخر:

هِيَ الْقَنَاعَةُ فَالْزَمْهَا تَعِشْ مَلِكًا   لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْكَ إلاَّ رَاحَةُ البَدَنِ
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالْكَفَنِ؟!

ولقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قَالَ: «لأن يأخذ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِىَ بِحُزْمَةٍ من حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِه فيبيعَها فيكُفَّ بها وَجْهَهُ خَيْرٌ له مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَمْ مَنَعُوهُ». وحديث آخر للبخارى عن رسول الله ﷺ: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِىَّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

إن رسالة المسجد تحث الغنى على المساهمة فى فك أزمة المجتمع، والتوسعة على المحتاجين، وعدالة توزيع الزكاة التى شرعها الله فرضًا على من مَلَكَ النِّصَابَ المحدد. وكذلك تدفع بالفقير ليكون عاملاً منتجًا فى مجتمعه، وليس كَلا[1] على غيره. وإذا كَانَتِ اليدُ العُليا - أى: التى تُعْطِى - خَيْرٌ مِنَ اليدِ السُّفْلَى - وهى التى تأخذ - فإنَّ الإسلامَ نَهَى الغَنِىَّ أن يَمُنَّ على الفقير بِصَدَقَتِه، أو يُعَيِّرَهُ بالقَدْرِ الذى أخذه من الزكاة، أو أن يستعبده، أو يتحكم فى رقبته بهذا العطاء، يقول الله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[2].

---

(١) كَلاً: عَالَةً.
(٢) سورة البقرة - من الآية ٢٦٣.

ويجب على المحتاج أن يأخذ ما يكفيه فقط، ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ لِيُثْرِىَ مَالَهُ فَإِنَّما هِىَ رَضْفٌ[1] مِنَ النَّارِ مُلْهبَةٌ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ» أى: الذى يتخذ الشحاذة والتسول وسؤال الناس بابَ غِنًى، فإنما هو يأخذ قطع حجارة محماة كأنها نار موقدة؛ ذلك لأنه يأخذ ماليس له، وكذلك يأخذ أوساخ الناس وخطاياهم.

وهذا توجيه وإرشاد لمن كان عنده عشاء ليلة ألا يسأل الناس ولا يأخذ، ويوضح هذا قول رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ آمنًا فى سِرْبِهِ، مُعَافًى فى بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَا فِيرِهَا» رَوَاهُ الترمذى.

إن أمتنا اليوم تشكو صداع التسول وعدم معرفة أصحاب الحقوق، ومَرَدُّ ذلك أن الدولة اتسعت رقعتها، فكان لابد لهذا الاتساع من أن يكون المسجد به سجل الذين يُحِيطُونَ به، خاصة أصحاب الحاجات، فإذا أراد الواحد منهم الهجرة أخذ من المسجد ما يفيد بأن له فى أعطيات المسجد نصيبًا، ولكن هذا لم يحدث، فكان ما نعانيه من اختلاط الحابل بالنابل. وإذا ما تمت عملية التسجيل فإننا بهذا نضمن أن ما يُدفع يكون للمحتاج فعلا.

وياليت قومى يعلمون هذا وما يعود به على الأمة من استقرار واستتباب للأمن، فتسارع إلى تنظيمه، ووضع الضوابط لهذا المسلك الإنسانى العظيم، وعدالة توزيع الزكاة وجمعها. إن الفقر كُفْر، ولقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ منهما ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ».

إن البطون الجائعة لم تشبع إلا يوم أن مَدَّ الإسلام ظله الظليل على الإنسانية الحائرة، وكان للمسجد دور الريادة فى وضع دفاتر يسجل بها أسماء المزكين، وأخرى للمحتاجين، وتقوم لجنة من الرواد بهذا العمل تطوعًا بعد الانتهاء من عملهم المعيشى، ثم يكون هناك نماء لمال الزكاة فى مشاريع إنتاجية، يكون من ورائها تشغيل الأيدى العاملة العاطلة، وإطعام البطون الجائعة ومساجدنا -

(١) الرَّضْفُ: جَمْعُ رَضْفَة، وهو الحجر المُحْمَى بالنار.

والحمد لله ـ بجوارها المبانى المتهدمة، والأماكن الخربة التى يتخذها من لاخلاق لهم فى أعمال غير لائقة، فلوْ بنيت هذه الأماكن بالجهود الذاتية واتُّخِذَتْ مكانًا للتدريب المهنى، قسم للنساء وآخر للرجال، وتعاون الجميع على إجادة الصنعة، ثم طُرِحَتْ فى الأسواق للبيع، لاشك أن هذا من أحسن الأعمال وأفضلها.. ويا حبذا البدء بالمساجد الكبرى فى المدن، خاصة أن أهل الفضل من الأثرياء يترددون عليها، وهم محبون بطبيعتهم لفعل الخير. إن الصداع الذى يعتمل فى رأس الأمة سيزول، وينهض كل فرد بأداء الواجب عليه، وعندئذ تسعد الأمة..

إننا نسمع عن إقامة سوق خيرى لجمعية تحمل ملامح إسلامية، وللأسف يكون فيه عرض للموضة عن طريق راقصة متحللة من القيم الأخلاقية، ويتخلل الحفل الكثير مِمَّا يُغْضِبُ الله ولا يَرْضَى به أصحاب العقيدة. وكثير من المسلمين فى وسط هذا الجمع والحشد الهائل الذى تدار فيه كُئُوس الخمر، وتتعرى فيه أجساد النساء، فلو أن المساجد نافست هذا وصدرت للمجتمع نماذج فريدة من عمل وإنتاج أصحاب النفوس المؤمنة والعقيدة الراسخة لَقَلَّ رُوَّاد الشر الذين يكثرون بقلة أصحاب الحق؛ لأن الشر لا ينتشر إلا إذا غاب أهل الخير. إنها دعوة نوجهها وهى مدروسة ولا تحتاج إلا لنفوس مؤمنة تعمل لله وللخير، ولإسعاد البشر، وهى تردد ما قاله أهل الفضل: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[1].

لقد عرفت الإنسانية العمل عن طريق المسلمين؛ لأن الإسلام يحث عليه، ويدعو إليه، وينهى عن البطالة، ويذم التقاعس، وتأمل ماروِىَ عن سيد الخلق وإمام الدعاة، كيف صَنَعَ مع رَجُلٍ يسأله، يعنى يتسول بلغة اليوم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «أَمَا فى بَيْتِكَ شَىْءٌ؟ قَالَ: حِلْس[2] نلبسُ بعضَهُ ونبسطُ

(١) سورة الإنسان ـ الآيتان: ٩ و ١٠.
(٢) الحِلْسُ: كل ما يُبسَطُ فى البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع، وما يُفْرَش على ظهر الدابَّة تحت الرَّحْلِ والقَتَبِ والسَّرج.

بَعْضَهُ، وقَعْبٌ[1] نَشْرَبُ فيه منَ الماء. قال النبى ﷺ: ائتِنى بِهِمَا فَجاءَ بهما، فأخَذَهُمَا رسول الله ﷺ وقال: مَنْ يَشْتَرِى هذين؟ قالَ رجل: أَنَا آخُذُهُمَا بدرهم. قال رسول الله ﷺ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى درهم (مرتين أو ثلاثا) قَالَ رَجُلٌ: أنا آخُذُهُما بِدرْهَمَيْن، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وأَخَذَ الدِّرْهَمَيْن فَأَعْطَاهُما الأنصارىَّ - الرجل الذى جاء يسأل - وقَالَ: اشْتَرِ بأَحَدِهمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إلى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بالآخَرِ قَدُومًا فَأْتنى به، فَأَتَاهُ به، فَشَدَّ فيه رسول الله ﷺ عُودًا بيَدِه ثم قال: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَفَعَلَ، فَجَاءَهُ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فقال رسول الله ﷺ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ المسَألةُ نُكْتَةً فِى وَجْهِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ. . «إنَّ المسألةَ لا تصلح إلا لثلاث: لذى فقر مدقع، أو لذى غُرْمٍ مقطع، أو لذى دم موجع». رواه أبو داود.

إن المسجد طبيعته أن يلقن العلم ويدفع للعمل؛ ليرتفع بمستوى الناس علميًا وفكريًا وماديًا؛ لتتحقق له مكانة الاستخلاف فى الأرض، عن الله سبحانه وتعالى الذى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

والصالح فى الآية هو الذى عنده قُدرة ومعرفة استخراج كنوزها، والانتفاع بخيرها، والارتقاء بالإنسانية فى مضمار التقدم والعمران، مع حُسْنِ الصِّلَة بالله، والسير على نهج الرسالة السماوية، وتطبيق الشريعة التى نزلت على قلب سيد المرسلين. هذا، ولعل قائلا يقول: إذا لم يكن عندى نصَابُ مالٍ لأتصدق منه وأخرج الزكاة التى فرضها الله، فماذا أصنع؟ نقول له: أَسْهِمْ ولوْ بالقليل فى عمل المشاريع الإنتاجية، وتأسيس دور التدريب المهنى، فإذا لم تستطع المساهمة المالية فليكن بالرأى والعمل اليدوى، والتشجيع بالكلمة البناءة، إن ساعة واحدة تقضيها فى وسط الجو الأخوى تسهم برأيك وجاهك ومنصبك

(١) القَعْبُ: القَدَح الغليظ.

(٢) سورة الأنبياء - الآية ١٠٥.

يكون لك بذلك أجر المساهمة المالية فإذا لم يمكنك فكُفَّ لسانك وأمسكه عن العاملين، ولا تكن مُثَبِّطًا للهمم. وصدق رسول الله ﷺ فيما أرشد به عقبة بن عامر عندما قال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ عَلَى خطِيئَتِكَ».

إننى أهمس فى أذن الكثير من إخوانى المسلمين الذين يشربون «التمباك، والسجاير، والدخان»، وأقول لهم: إذا كان ثبت طبيًا ضرر هذه الأشياء مجتمعة أو منفردة، وإذا ثبت أن هذا يضر بالصحة، فعدم تعاطيه وشربه أفضل، لأنه يجر إلى التهلكة التى نهانا عنها العليم القدير، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1].

والإنفاق فى استعماله إسراف وتبذير؛ لأن ما ينفق عليه لا يفيد الجسم ولا العقل. قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[3].

إن الجسم لا يستفيد من الدخان، وعلاوة على رأى الأطباء فيه، فإنه يتسبب فى كثير من الأمراض، كحساسية الصدر، ومرض السرطان، كما أن الفم يُصاب بنتن الرائحة، واصفرار الأسنان، ومن ثَمَّ يسرع إليها التلف. والمؤمن مطلوب منه أن يكون ذا رائحة طيبة؛ لأن نتن الفم يتضرر ويتأذى منه جيرانك فى الصلاة، وكذلك الملائكة. وقد روى الطبرانى عن أنس أن النبى ﷺ قال: «مَنْ آذَى مُسْلِمًا فَقَدْ آذَنِى، وَمَنْ آذَانِى فَقَدَ آذَى الله تعالى».

إن كل قرش يصرف فى الدخان الذى يكون سببًا فى ضرر الجسم لو أن الإنسان صرفه على طعام يأكله، أو جلباب يلبسه، أو فاكهة يحملها لأهله،

(١) سورة البقرة ـ من الآية ١٩٥.

(٢) سورة الأعراف ـ من الآية ٣١.

(٣) سورة الإسراء ـ من الآيتين: ٢٦ و ٢٧.

لكان له أَجْرٌ عظيم، فإن كان هذا القرش زائدًا عن حاجته فليُسهم به فى عمل خير يقدمه إلى مجتمعه؛ لأن الذى لايهتم بأمر المسلمين فليس منهم. إن ثمن علبة السجائر لو أَسْهَمْتَ بها فى مشروع خيرى يُقام لكانَ لكَ فى رصيد حسناتك عند الله.

إن الدخان من أساليب الاستعمار التى صدرها إلينا، يَبْتَزُّ بها أموالنا، ويضعف بها صحتنا، فهل آن الآوان أن نعتبر ونتعرف على مواقع أقدامنا؟ وليكن لنا إسهام فى كل عمل خير لخدمة الأمة التى أراد الله لها أن تكون خيرأمةٍ أُخْرِجَتْ للناس. إنها صيحة نرددها: مَنْ الذى يُقْرِضُ الله قَرْضًا حسنًا، فيضاعِفَهُ له؟ إنَّ أىَّ عَمَلٍ خَيِّرٍ تُقَدِّمُه للإنسانية لك عليه ثواب مُضَاعَف من الله سبحانه، وكل مليم تقدمه لأى عمل عظيم لك به ثواب وعليه أجر.

فكن - أيها الآخ الكريم - مِنْ رُوَّاد المساجد، ومن المساهمين - ولو بالقليل - فى كل عمل عظيم، والله يهدينا جميعًا لأن تكون يَدُنَا بَنَّاءَةً لخير الإنسانية، مع صدق النية والإخلاص - ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

مكتبة المسجد

لقد رأينا المسجد وهو دار لجمع الزكاة وتوزيعها، ثم تقديم العمل الذى يرتفع بالإنسان ومستواه، ويصنع منه الإنسان الكامل فى خُلُقه وسُلُوكه وعمله وعبادته. إن المسجد مركز إشعاع وتوجيه وتربية لكل المسلمين الذين يسكنون حوله، ثم هو يستهوى طلاب المعرفة، والراغبين فى التزود من الثقافة المتنوعة التى تغذى العقل والفكر، أو تعطيه نوعًا معينًا من الزاد الفكرى المتخصص - إن كان متخصصًا - لذلك يلزم أن يكون بالمسجد مكتبة جامعة متنوعة، تُزَوَّدُ يوميًا بالجديد من الكتب والبحوث والمجلات والصحف؛ ليكون المتردد على تلك المكتبة على صلة بكل جديد فى الفكر، وما يجرى فى العالم من تيارات

(١) سورة البقرة - من الآية ١٢٧.

فكرية، ويا حبذا أن يتم إعداد نشرة أسبوعية بما يجرى فى المنطقة المحيطة بالمسجد، والمشاكل التى تطرأ عليها، والعلاج الأفضل، ويشترك فى إعدادها بعض العناصر الشَّابَّة: أطباء، ومدرسون، وتُجَّار، علاوة على أن فى المقدمة رأى الإمام، وهذه النشرة تعلق بداخل المسجد فى إطار - يعنى صحيفة حائط - للمسجد، وبجوار هذه المكتبة الجامعة والنشرة نرى أن تكون هناك مكتبة مسموعة إن أمكن، أى مجموعة أشرطة يُسَجل عليها آراء قيمة يمكن إذاعتها فى بعض الأحايين.

إن الكلمة المقروءة والمسموعة التى تنطلق من داخل المسجد يكون لها تأثير فى النفوس وتوجيه لكل عمل بَنَّاء فى حياة البشر. إن تراثنا الإسلامى العظيم من فكر السابقين جدير بنا أن نعود إليه، نقرأ فيه ونضيف إليه، ومن خلال هذا تُنظم ندوات يتحدث فيها أصحاب الفكر وأرباب الرأى، تتناول موضوعات متعددة فى الدين والاقتصاد ووسائل التجارة، وأسباب نجاح المشاريع والسياسة والحكم، كل ذلك باسلوب مترابط واضح وقريب من اذهان المستمعين، بحيث تشد انتباههم وتثير فى أذهان الناس أطراف القضايا العامة، ثم لابد من دراسة التاريخ والجغرافيا ووضع المسلمين فى العالم، وبيان أهم المسائل والمعوقات التى تعترض حيانهم. إن الإسلام هو الِّلواء الذى ينطوى تحته أتباع هذا الدين، وهم بحكم انتمائهم لهذا الدين إخوة، تترابط عواطفهم، وتتحد آمالهم، وينجذب بعضهم إلى بعض، ولسان كل واحد يردد:

أَبِى الإِسْلاَمُ لا أَبَ لى سِوَاهُ   إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْتَمِيمِ

إن المسجد إذا أسهم فى تكوين عقول المسلمين وتنمية ثقافتهم، فإن المجتمع بأسره سيتحول إلى المسجد الذى يؤدى بجواره هذا الغرض الأساسى الذى بُنى له، وهو ذِكْر الله وعبادته، وإقام الصلاة... لقد كان المسجد فى عهد رسول الله ﷺ به كل هذا وزيادة... ولعل افتداء الأسرى بتعليم عشرة من المسلمين فى غزوة بدر خير شاهد على ما نقول. إنا - إذ نطالب بفتح مكتبة متعددة الألوان - نحذر من الكتب غير الجيدة وما فيها من إسفاف.

إننا نطالب بالكتب الثمينة التى تخدم الفكر الإسلامى، والثقافة البناءة بكل اتجاهاتها. والثقافة جهد مشترك بين الأجيال، اللاحق يواصل مسيرة السابقين، ويستفيد من تجارب الأولين.

إن المسجد الآن جدير أن تعود إليه حركته الفكرية والنشاط العقلى، وهذا مرهون بجهد المخلصين الذين يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا.

ناد رياضى:

إن شبابنا أمل الأمة، وهم رجال الغد، وحملة المسئولية فى المستقبل، إنْ تَمَّ إعدادُهم إعدادًا طيبًا نَهَضَ بهم المجتمع. وقد رأينا فيما قدمناه أن المسجد هو الذى يبنى الإنسان من داخله بالعبادة ومن خارجه بالطهر، ويؤسسه على قوة العقيدة مع قوة البدن؛ لأن العقل السليم فى الجسم السليم، ووَقْتُ الشباب بَدَلَ أن يُقْضَى فى التسكع على النواصى وفى الطرقات وما يترتب عليه من آثام، فأولى بهم أن يقضوه بين جدران المسجد، الذى إذا استطعنا إن نعد بجواره مكانًا على درجة من الاتساع، ثم يتم تنسيق هذا المكان وتغطيته بالحشائش الخضراء - فإنه يصبح صالحًا لأن يمارس فيه الشباب وغيرهم ألوانًا من الرياضة، وعَرْضَ بعض الفنون النافعة المفيدة من إنتاجهم، وقد أجاز العلماء ذلك قياسًا على أن النبى ﷺ أذنَ للحَبشَة أن يعرضوا بعض اللعب بالحِرَاب فى مسجده، وكان ينظر إليهم ومَنْ خلْفه السيدة عائشة - رضى الله عنها - مستترة بردائه تنظر إليهم أيضًا، وهذا النوع يسمى الآن بالتحطيب، أو ما شاكل ذلك، المهم أن يتم ذلك.

نستطيع أن نقول: لا مانع أن يكون بجوار المسجد ملاعب للكرة بأنواعها، ورفع الأثقال، وحمام سباحة، وكل أنواع الرياضة، فإذا أَذَّنَ المؤذن توقف اللعب، وهدأت الحركة، وتوجه الجميع إلى المسجد يقفون أمام ربهم فى خشوع وتآلف، فإذا قُضيَت الصلاة دبت الحركة والنشاط من حول المسجد رياضة، وبداخله علمًا وإنَّ الحفاظ على المسجد وقدسيته فى نفوس الناس متأصلة، لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الطيب على هذا اللون عندما مَرَّ على مجموعة من الشباب وهم يتدربون على الرماية، فقال لهم: «اِرْمُوا بَنِى إسْمَاعِيل فإنَّ أَبَاكُمْ

كَانَ رَامِيًا، ارموا وأنا مع بنى فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقَالَ رسولُ الله ﷺ: ما لَكُم لا تَرْمُونَ؟ قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِى وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ فَقَالَ: ارْموا أنا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ».

هذا هو الإمام المعلم لم يأنف أن يرمى مع الشباب وهم يلعبون، حتى إذا سمع صوت المؤذن أسرع معهم للمسجد. فهل لنا أن نتوجه بأبصارنا لتلك الأندية الرياضية نقيم فى كل نادٍ مسجداً يكون مركز إشعاع للشباب.

وكذلك «الاستاد» الذى تُقام فيه المباريات العامة، نجعل فيه مسجداً؛ لنربى الروح مع الجسد، وكما نحرص على تقوية العضلات نعمل على تقوية العقيدة وقوة اليقين وتأصيل الخلق. إننا ـ ونحن نشكو من هذا الهرج الذى يؤدى إلى التلف والضرر والبطش ـ نُقدم تلك الجرعة الروحية التى يتزود منها الرواد رحيق الإيمان المصفى من داخل المسجد كعلاج لذلك، فهل لنا أن نعيد تخطيط أنديتنا بما يتفق مع روح الإسلام، ويتلاءم مع طبيعة بيئتنا وأصالة قيمنا، ونضع «المسجد» فى مدخل الأندية؛ ليكون الدليل على قوة عقيدتنا؟

دار الغريب:

أراد أعداء الإسلام أن يضعفوا روح المسلمين فاتجهوا إلى المسجد، وعملوا على عزله عن حياة المسلمين، هذا المسجد الذى كان بمثابة مكتب للخدمة الاجتماعية، وتحصيل الزكاة وتوصيلها إلى أصحابها، ثم هو فى نفس الوقت مكان ينزل فيه الغريب، ويأوى إليه الفقير الذى لايجد مأوى. ونبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خَصَّصَ فى مسجده مكانًا لإيواء الفقراء الذين ليس لهم بيوت، وعُرِفَ هذا بمكان أهل الصُّفَّة، وكان عددهم حوالى سبعين فرداً على رأسهم أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ وكان النبى ﷺ يُنفقُ عليهم من مال الصدقة وتبرعات أهل الفضل. كما كان عبد الله بن عمر ينام فى المسجد وهو شاب لم يتزوج، وكذلك كان بالمسجد سكن خاص لامرأة، كانت أَمَةً

تخُدم حيًا من العرب، ثم اتهموها بالسرقة فبرأها الله، وأسلمت، فاتخذت خباءً بالمسجد تسكن فيه وتتردد على أم المؤمنين عائشة فى بيتها.

لقد عرف أهل الخير أن الغريب لابد أن يكون له مكان يأوى إليه، فبنوا المضيفة، والرباط بجوار المساجد، وأوقفوا لها ما يضمن لها استمرار أداء هذا الجانب الخير والعمل العظيم فى حياة الإنسانية، وتعلموا هذا من المسجد الذى اتسع لهذا العمل الرائع، وكان فيه متسع للغريب والفقير. إن يد المسجد حانية رحيمة، لا تعرف القسوة، ولا تتنكر لأى شخص، خاصة إذا كان من أهل لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وهذه شهادة السماح بالدخول إلى بيت الله الذى أضافه لنفسه تشريفًا وتكريمًا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1].

مستشفى:

المستشفى هو المكان المخصص لعلاج الأمراض وتَطْبِيبِ الجسد، والمسجد هو المكان المخصص لعلاج الأرواح وتطبيب النفوس، ويمكن أن يتحول المسجد إلى مستشفى، كما أن المستشفى قد يتحول إلى مسجد إذا دعت الضرورة، ورسول الله ﷺ اتخذ من المسجد مكانًا لعلاج المرضى... ففى غزوة الخندق أصيب سعد بن معاذ، فضرب النبى ﷺ خيمة له فى المسجد يُعالَج فيها، وقام بتمريضه أهل الخبرة فى هذا المجال، ولقد سال الدم منه فى المسجد، وكذلك ضُرِبَتْ خيمة فيها بعض المسلمين من قبيلة بنى غفار، وهذا يدل على أن المسجد لا يُشكل عبئًا على المجتمع، وإنما هو يتفاعل ويتجاوب مع كل شىء يهم المجتمع، ويموج بالحركة الدائمة التى تدل على تأصله وتعمقه فى كل اتجاه.

إن المريض إذا وصل إلى سمعه نداء: «الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر - أشهد أن لا إلـه إلا الله - أشهد أن لا إلـه إلا الله - أشهد أن محمدًا رسول الله - أشهد أن محمدًا رسول الله. حَيَّ على الصلاة - حَيَّ على الصلاة -

---

(١) سورة الجن - الآية ١٨.

حيَّ عَلَى الفَلاَح ـ حيَّ على الفلاح ـ الله أكبر ـ الله أكبر ـ لا إله إلا الله» هذا النداء، وهذا النشيد الذى يدخل الأذن فيتسرب إلى القلب، فيستريح الإنسان؛ لأنه وَصَلَ الإنسانَ بربه، وبَيَّنَ أن هذا الإلـه الكبير المتعال هو الذى بيده الأمر وإليه المرجع، وإذا مرض الإنسان شفاه. «الله أكبر» كلمة حلوة يجد المريض لذة لسماعها، وشفاءً لمرضه، وذهابًا لهمه، وانكشافًا لغمه.

لا تظن ـ أخى القارئ ـ أننا نريد أن نحول المسجد إلى مستشفى، فهذا أمر لا يجوز؛ لأن المسجد بُنِى لِغَرَضٍ أَسْمَى، ولكن نجعل فى كل مستشفى مسجدًا يتردد بين جنباته هذا النداء الذى يسمعه المريض فيهرع للصلاة إذا كان قادرًا، وإلاَّ صلى فى حجرته ولو قاعدًا، فإن لم يقدر على التيمم صلى فاقد الطهورين. وخلاصة ذلك أن المؤمن يجب عليه أن يكون على صلة دائمة بالله رب العالمين؛ لأن هذه الصلة تخفف عنه الألم وتذهب السقم؛ لأن المؤمن هو أثبت الناس فى الشدائد، وأرضاهم نفسًا بقضاء الله، وأصبرهم على البلاء الذى يَصقل الإيمان فى النفس، ويُذْهِبُ صدأ القلب، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾(١).

ومن علامة الإيمان الرضا بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره. وأمام عين الإنسان المريض قول الحق سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾(٢).

ولقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما يُصيبُ المسلمَ مِنْ هَم، ولا غم، ولا نَصَب، ولا وَصَب، حتى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ بها مِنْ خَطَايَاهُ». وتأملْ فى كلمة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: «ما أُصِبْتُ فى دُنْيَاى بمصيبة إلا رأيتُ لله فيها ثلاثَ نِعَم: الأولى: أنها لم تكن فى دينى. الثانية: أنها لم تكن أكبر منها. الثالثة: أننى أرجو ثواب الله عليها». إن

(١) سورة محمد ـ الآية ٣١.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية ٥١.

المصيبة مادامت بعيدة عن دين الإنسان فهى هينة؛ لأنها تُكَفِّرُ للإنسان السيئات التى عليه، وتزيد فى الحسنات، وما أحوج الفرد إليها. ولقد أصاب أحد الصالحين وَجَعٌ فى ساقه، فلم يتوجع ولم يتبرم، بل صبر واحتسب، وابتسم واسترجع، وحمد الله وشكره، فقيل له: يُصيبك هذا ولا تتوجع؟ فقال: إنَّ حَلاوةَ ثَوابِهِ أَنْسَتْنِى مَرَارَةَ وَجَعِه.

إن المؤمن ينظر بعيّن بصيرته فيحمد الله، وهذا - بلاشك - يُحْدِث ارتياحًا للنفس؛ لأن مَنْ نظر إلى بلوى غيره هانت عليه بلواه. ولنا بأن نعتبر بقصة سيدنا يوسف عندما هُدِّدَ: إمَّا أن يرتكب الفاحشة مع امرأة العزيز، وإما أن يدخل السجن، فنظر إلى الدنيا فوجد أنها قصيرة، وأن عمرها إلى فناء، وسعادتها لاتدوم، وكم من لذة دامت ثانية أعقبت مرارة فى الفم سنين وسنين! إن تعب الضمير لن يستريح الإنسان منه أبدًا، وقد يكون تعب الضمير سببًا فى بلاءٍ يُصيب الإنسان فى الدنيا، وفى الآخرة يَلْقَى سوء المصير. أما تعب الجسم فيستريح منه الإنسان بعد قليل؛ لذلك رضى سيدنا يوسف بالسجن عندما قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(1).

فكان رده: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾(2).

وإنما سقت هذا ليتبين أن مرض المريض ليس لهوانه على الله، كلا، وإنما هو امتحان لقوة عقيدة الإنسان، ومما يزيد فى قوة عقيدة الفرد - وهو على فراش مرضه - سماعه للأذان الذى يُذكره بالله وقدرته، والنبى ورسالته، ودعوة للصلاة والفلاح.

إن المسئولين عن علاج مرضى المواطنين لو تنبهوا إلى أن رَفْعَ الروح المعنوية لدى المريض يرفع نسبة العلاج إلى أكثر من ٥٠٪، ويكون سببًا فى الشفاء

(1) سورة يوسف - من الآية ٣٢.
(2) سورة يوسف - من الآية ٣٣.

العاجل، وأن رفع الروح المعنوية لن تأتى إلا عن طريق الإيمان الذى إذا تدخل رفع الطب يده ـ لوتنبهوا إلى ذلك لأقاموا على باب كل عنبر مصلى يُؤَذَّنُ فيه؛ ليتذكر هؤلاء تلك اليد الرحيمة، والرب الحنان المنان، واهب النعم، وشافى السقم، ومخفف التعب، وإذا كان المسجد فى عهد رسول الله ﷺ اتُّخِذَ فى وقت كَمُسْتَشْفَى، فجدير بنا ـ ونحن نبنى أمتنا ـ أن نعمل على إيجاد مسجد فى كل مستشفى؛ لأن المريض هو أقرب الناس إلى الله، وأحوج مَنْ يُذَكَّرُ برب العالمين.

مكان للفرح ـ وآخر للترح:

المسجد جزء من حياة الناس لا يستغنون عنه بأى حال من الأحوال، وما يحيط به ويتصل بجوه كله طهر ونقاء، ولقاء متجدد بين الناس ينتج عنه إخوة كاملة، فإذا اتخذ المسلمون منه مكانًا لعقد الزواج بين الراغبين فيه، ويتم هذا العقد المبارك الجليل فى ظل الجو الإسلامى المتسم بصفاء الروح بين جدران البيت الذى أذن الله أن يُرْفَع ويُذْكَر فيه اسمه، فيكون ذلك أجدر أن يُبارِكَ الله فيه، وأن تسوده روح المسجد. ولقد سَنَّ النبى ﷺ أن يُعْلَنَ النكاح فى المسجد؛ لأن أكبر عدد من المسلمين يشهدون هذا العقد، ومن السُّنَّةِ إظهار النكاح فى جَمْعٍ عظيم. وإذا كان من السنة أن تقرع الطبول ويضرب على الدفوف فإن صيغة العقد تتم فى المسجد، وهذا الضرب يتم فى بيت أحد الزوجين، ويُصَان المسجد عن مثل هذا العمل. وياحبذا أن يتم عقد القرآن فى مسجد الحى فى حجرة الإمام، أو مكتبة المسجد، أو فى مكان يخصص لمثل هذا العمل، فإن لم يتيسر ذلك فلا مانع أن يتم فى صحن المسجد بعد صلاة جامعة.

ثم نرى أن يكون بالمسجد مكان ليجتمع فيه المسلمون يتقبلون العزاء عما أصابهم من مصيبة، ويجتمع المسلمون على تلاوة القرآن فى خشوع وخضوع واستحضار للقلب؛ لأن المسلمين اليوم يجتمعون لتقبل العزاء فى أماكنٍ خلوية تُفْرَش بأشياء تكلف أهل الميت الكثير من المال، هذا، وما يحدث فى السرادقات عند تلاوة القرآن من شُرب التبغ «السجائر»، وما يستتبع ذلك من عرض

ورفض، الأمر الذى يحدث أحيانًا، وما شاكل ذلك، وكل ذلك غير لائق بالمسلمين.

إن الأخطاء التى تجرى فى الأفراح والأتراح[1] وأصبحت دخيلة على المسلمين وطبائعهم عليهم أن يتنبهوا لخطرها. وأن يعودوا إلى التقاليد الأصيلة التى تتسم بالخلق والفضيلة، والبعيدة عن الإسراف والتبذير، ويا حبذا أن يصبح المسجد هو وجهة المسلمين.

وكأنى ألحظ بعض الإخوة يقول: ما يجرى فى مسجد عمر مكرم بالقاهرة يتفق وما تشير إليه، إننى أقول له: كَلاًّ، إن ما يجرى فى مسجد عمر مكرم وبجواره ثم تلك الميكرفونات أو مُكَبِّرات الأصوات تنبثُّ من ثلاثة سُرادِقات فى وقت واحد، تُقْرأ آيات لا ترابط بينها، علاوة على الشوشرة والضجيج الذى لا يرضى به عاقل، ولا يُقِرُّه إنسان، إنما الذى أهدف إليه أن يجتمع المسلمون على قارئ واحد، وتوضع مداخل متعددة، فيتعرف الإنسان لمن جاء إليه من ورقة مكتوبة تبين المدخل الخاص به، ويتم العزاء فى القاعة الكبرى، ثم يكون ذلك فى المساجد الجامعة التى تتوسط الميادين.

ونود أن نقول: ليس بالضرورة أن يكون كل مسجد على هذا النمط، إنما يتم ذلك فى المساجد التى تتوافر لها الإمكانات، ويحيط بها عدد من السكان، إن المسجد إذا دخل حياة الناس بتلك الصورة فإن إيجابيته تتحقق، ويسهم فى كل مناحى الحياة التى تهم المسلمين وترتبط بمشاعرهم، وإذا كان الوضع كذلك فإن كل الشئون التى تهم المسلمين تُذاع من المسجد وتُعلن من داخله، وإذا استطاع أن يفتح أبوابه طول النهار وجزءًا من الليل وكانت مرافقه الملحقة به عاملة نشطة تدب الحياة فى كل ناحية حسبما تتطلب المنطقة والبيئة - فإن المسجد بذلك يدخل على الناس بيوتهم وحياتهم، ويتردد على ألسنتهم، وبذلك يصبح مؤسسة إسلامية جامعة، وتصور الصورة الدقيقة لوظيفة المسجد التى تتسم بالإيجابية والفاعلية، وعندئذ يقبل الناس عليه، ويزداد تعلقهم به؛ لأنه بغير

---

(١) التَّرَحَ: الحُزْن.

المسجد لا يستطيع عامة المسلمين أن يعرفوا أخبار إخوانهم، خاصة الذين تَتَنَاءَى بهم الديار ولا يفدون للمسجد إلا يوم الجمعة، حيث الخطبة تلقى على الجميع، وهى يطبيعتها تشتمل على أهم الأخبار التى تهم سكان المنطقة، وبذلك يتم التعرف على المريض فيزار، وإن كان الفرد مسافراً رعاه أهل المسجد فى أهله وماله، وإن كان محتاجًا تمت مساعدته باسم الجماعة المتآلفة المتحابة.

إنَّ تَصَدُّرَ المسجد بهذه الصورة المشرقة فى المجتمع يعطى المسلمين مكان الصدارة، وخاصة لو عادوا إليه بتلك المكانة، غير أنه للأسف انكمش عن أداء وظائفه؛ لذلك طمع فى المسلمين العَدُوُّ، وانتهب أرضهم، وأصبحوا أتباعًا بعد أن كانوا قَادَةً. لقد فقد المسلمون أدب المسجد وتفاعله فى حياتهم ففقدوا أنفسهم فى زحمة الصراع على الدنيا، وهـم ـ الآن ـ ملايين مبعثرة، وأشتات موزعة، لا دين يطمئن به قلب، ولا دنيا يستقر بها شأن، شقاء هنا وهناك يرزح تحته كل مسلم، والخلاص من ذلك أن يكون المسلمون رَبَّانيين، مُحَمَّدِيين، يتربون فى المسجد على مائدة القرآن، وعلى هَدْيٍ من توجيه صاحب الرسالة والداعية الأول، صلوات الله وسلامه عليه. إنه بغير المسجد لا يقوم بناء المجتمع السليم المتحاب، وبغير المسجد لا تصل حركة المد الإسلامى، ولا تسمع الدنيا بالمسلمين الذين يبيعون أنفسهم لله، ويردد الواحد منهم:

رَكْضًا إلى الله بغير زادِ   إلا التقى وعمل المعادِ

إن المسجد إنْ تَصَدَّرَ حَيَاةَ الناسِ فى المجتمع سَعِدُوا وفازوا، ونهضوا من كبوتهم، وَتَبَوَّءُوا مكان السيادة والريادة فى دنيا الناس؛ لذلك يجب أن يزاحم المرافق والمؤسسات، وأن تعود إليه وظيفته حتى يثمر الثمرة الخَيِّرة إن شاء الله.

فى وزارة الخارجية:

لا تظن ـ أخى القارئ ـ أننى أريد أن أجعل المسجد وزارة خارجية تستقبل السفراء وتأخذ أوراق اعتمادهم، وأن تكون حيطان المسجد أرْفُفًا وأرشيفًا لتلك الدوسيهات التى تزدحم بها وزارة خارجية، ما إلى هذا قصدت، ولكنى أقصد أن يكون بكل مبنى لوزارة الخارجية مسجد يُؤَذَّنُ فيه عند كل صلاة؛ لكى

يفهم السفراء أو أعضاء البعثات الدبلوماسية أننا بلد إسلامى، وهذه شعيرة ديننا، ثم يتوقف دولاب العمل دقائق وينهض الجميع لأداء الصلاة المطلوبة.

كما يكون بكل مطار دولى - فى أى بلد إسلامى - مسجد تطالع مآذنه عيون الضيوف، فإذا هبطت الطائرة وحان وقت الصلاة كان هناك النداء الذى يدوِّى فى الآفاق ويتجاوب معه كل من فى الوجود، عَرَّفْنَا الضَّيْفَ من خلال هذا النداء أن الأمة التى تتخذ المسجد بهذه الصفة سيحترمها الغير؛ لأن الأمة التى لها عقيدة تتمسك بها يعلو قدرها، وبهذا يكون للمسجد أثر فى كل حياتنا.

إن أول سفير فى الإسلام هو مصعب بن عمير، الذى ذهب ليمثل أُمته، ويعمل على نشر عقيدته فى بلد آخر، وكان منهج حياته جَمْعَ الناسِ وتلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، والتآلف بين الناس، وكم أود لو أن سفراء الدول الإسلامية جعلوا المساجد قبلتهم، واتجهوا إليها، وعمروها بالإيمان، وعرضوا سياسة بلادهم على إخوانهم فى البلاد التى يعملون بها. إن الإسلام انتشر فى إفريقيا وغَزَا آسيا بواسطة هؤلاء السفراء، وكانوا تجارًا، ولكن سلوكهم العام ومظهرهم الخاص جَمَعَ الناس حولهم، وجعل الناس يثقون فيهم ويقلدونهم.

إن رئيس جمهورية مصر العربية السيد - محمد أنور السادات - عندما قام بمبادرة السلام وصلى العيد فى المسجد - المسجد الأقصى - ويومها نقل القمر الصناعى هذا الخبر الفذ العظيم إلى أنحاء الدنيا بأسرها - تغيرت الصورة، وانقلب الوضع، واتضحت الصورة أمام العالم بأن العرب والمسلمين - الذين صَوَّرَتْهُم الصهيونيةُ بأنهم وحوش خَلَتْ قلوبهم من الرحمة - هم أصحاب عقيدة، وأهل صفاء، وعقيدتهم تربطهم برب الأرض والسماء، ألم أَقُلْ أولا بأن العالم يحترم صاحب العقيدة؛ لهذا بادر المجتمع بأسره يُثنى على رئيس الجمهورية المصرية، بل إن خطيب المسجد الأقصى حَيَّاهُ وقال له:

«لولا أنت وزيارتك - يا سيادة الرئيس - ما سمع بنا المجتمع ولا نظر إلينا».. يا سبحان الله! خطوات إلى المسجد غيرت نظرة العالم!

ولقد علمنا المعلم العظيم والمرشد الأمين سيدنا محمد ﷺ أن نتخذ من المسجد مكانًا لاستقبال السفراء - الضيوف الأجانب - في المسجد، فهو يشبه قاعة الاستقبال الرسمية. وكان المسجد مفتوحًا لجميع الوافدين في عهد رسول الله ﷺ، حتى ولو كانوا غير مسلمين.

ولقد كان النبى ﷺ يستقبل الوفود فى المسجد التى تأتى لأغراض مختلفة، كطلب عِلْمٍ، أو إعلان إسلام، أو عقد معاهدة أو تحالف، أو طلب معونة. وقد استقبل النبى ﷺ وَفْدَ نصارى نجران، وكان فيه ستون رجلا منهم أربعة عشر من أشرافهم، ثلاثة منهم يرجع إليهم أمرهم، وهم: العاقب عبد المسيح، وهو أميرهم، والسيد الأبهم، وهو ملجؤهم وغياثهم ومطعمهم فى الشدة، وأبو حارثة بن علقمة بكر بن وائل، وهو أسقفهم وعالمهم. دخلوا على النبى ﷺ إثر صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات - جُبَبٌ وأردية - فقال أصحاب النبى ﷺ: ما رأينا وفدًا مثلهم جمالاً وجلالاً، وحانت صلاتهم فقاموا فَصَلُّوا فى مسجد رسول الله ﷺ إلى الشرق، فقال عليه الصلاة والسلام: دعوهم.

ثم أقاموا فى المدينة أيامًا يناظرونه فى عيسى، وهو يرد عليهم، وفى النهاية دعاهم إلى المباهلة[1]، فأبوا ثم قالوا له: ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا أَرْضَى، فبعث معهم الأمين أبا عبيدة بن الجراح، ونزل فى هذا صدر سورة آل عمران.

ودخول اليهود والنصارى مساجد المسلمين أجازه الإمام الشافعى وأبو حنيفة وغيرهما، وقد ترجم البخارى لدخول المشرك المسجد، وقالوا: إن الممتنع هو دخول المسجد الحرام، وذلك لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾[2].

---

(١) يقال: بَاهَلَ بعضُهم بعضًا، أى: اجتمعوا فتداعَوْا فاستنزلوا لَعْنَة الله على الكاذب أو الظالم منهم.

(٢) سورة التوبة - من الآية ٢٨.

إن الإسلام يتميز بالسماحة وعدم التعصب، ومن مبادئه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1].

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[2].

ألا فلنتجه إلى المسجد نجعله أمام أعيننا ابتداء من مدرسة الروضة للأطفال، ويستمر فى كل مدرسة ومعهد وجامعة وأكاديمية، إلى الوزارات ومبنى المحافظات ومجمعات المصالح، وفى كل مكان يرتفع صوت المؤذن يذكر الناس بربهم ويجذبهم من دنياهم لحظات يعيشون فيها فى غمرة الحب والعشق الإلهى والتعاون والتآلف بعضهم مع بعض ولما كانت وزارة الخارجية تمثل الغالبية العظمى للسكان فإن المسجد لابد أن يكون مرفقًا له حيويته فى مبناها، وفى السفارات فى الخارج؛ ليكون مُعَبِّرًا بمبناه ومعناه عن حال الوطن الذى يرتفع علمه على مبنى السفارة، ثم تتعانق الكلمات التى تعلو مع العلم الذى يشمخ إلى عنان السماء، إننا بذلك نثبت شخصيتنا ونقوى عقيدتنا، ونحرص على أهم ركن فى ديننا ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[3].

وإذا كنا كذلك فسوف تهابنا الدنيا ويحترمنا الصديق والعدو، ولنا فى ماضى الأسلاف خيرُ عِبرة. إذا تسلح رجل السياسة بالعقيدة وتزود بالمثُل الكريمة وانصهر فى بوتقه الإيمان فإن شخصيته تقوى، وتفتح له مغاليق النفس، وتكون له بصيرة تعرف أقدار الرجال الذين يُمَارِس معهم أى لون من التفاوض، أو إبرام المعاهدات، وتأمل تلك الحادثة لتعرف فِرَاسَة المؤمن وكياسته وفِطْنَتَه، وقد تعلم هذا من المسجد وارتياده له، والتحامه مع الصفوة الممتازة من المؤمنين.

---

(1) سورة البقرة ـ من الآية ٢٥٦.
(2) سورة الكهف ـ الآية ٢٩.
(3) سورة هود ـ الآية ١١٤.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرَّاح بن عبد الله ـ قائد من قواده: «أُنْظُرْ مَنْ صَلَّى قِبَلَكَ إلى القبلة فَضَعْ عنه الجزية». فسارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام، وإنما فعلوا ذلك نفورًا من الجزية فامتحنهم بالختان، فكتب الجراح بذلك إلى عمر، الذى رد عليه بقوله: إن الله بعث محمدًا ﷺ داعيًا ولم يبعثه خَاتِنًا. وكتب عمر بن عبد العزيز أيضًا إلى أحد عماله ـ وهو يُماثِلُ السفير الآن: «أما بعد، فكن عبدًا ناصحًا لله فى عباده، ولاتأخذك فى الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا توله شيئًا من أمر المسلمين إلا المعروف، والنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى. وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا يخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبًا، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه».

بهذا الأسلوب كان التوجيه يتم بين القائد والخليفة، والحاكم والمحكوم، فهل لنا من عودة إلى المسجد، لنجعله فى كل مرفق ومؤسسة ومصنع ووزارة، وكل دار للتربية؟ إن المدن الجديدة التى تخطط الآن يجب على القائمين عليها أن يجعلوا المسجد فى قلب المنطقة التى تُخَطَّط؛ لأنه يمثل صمام الأمن فيها. ونستطيع أن نقول: إذا كان المستشفى يُبْنَى لصحة الأجسام فإن المسجد مثله يُبْنَى لصحة الروح، وإذا كانت الأيدى الآن ترتفع لتهدم السجون، فإن كل قالب يؤخذ من السجن يجب أن يوضع للمسجد؛ لأنه بالمسجد يتم تطهير المجتمع من الخطرين، وإذا كان شبابنا اليوم يُكثر من السفر للخارج ويتفرق للعمل هنا وهناك، وليست له رابطة تجمعهم، فأولى بنا أن نجعل يوم الجمعة هو يوم الزينة للقاء الأحبة فى رحاب السفارة، وأداء الصلاة جامعة، مما يوطد العلاقة، ويزيد التآلف، ويوجد روح المحبة، والمساعدة، وتوجيه النصح، ومن هنا يكون الولاء للأمة التى ينتمى إليها، فلا يذوب فى المجتمع الآخر وينسى وطنه وأهله وأبناء بلدته.

وعندما كنت فى ألمانيا الغربية وفى مدينة «فرانكفورت» دُعِيتُ لصلاة الجمعة

مع إخواننا الباكستانيين، وقد سرني أنهمّ استأجروا لأنفسهم غرفة كبيرة فرشوها ووضعوا بها بعض الكتب، وهى تعريف ببلادهم، وأهم الأنشطة الدينية بها، والمؤسسات التربوية، وأهم المشاهد والمزارات، مع كتب أخرى تشرح القضايا الإسلامية والفكرية التى تجرى على المناخ العالمى.. ثم تجمع الكثير من أبناء الباكستان ومعهم الكثير من مختلف الجنسيات، وأدوا صلاة الجمعة بخطبة وجيزة مُرَكَّزَة، تحث على الخُلق، وتدعم الفضيلة. ولما وصلت إلى «هامبورج» رأيت الأتراك ولهم مسجد، وواعظ قائم به من قِبَلِ دولتهم، وهم على صلة دائمة بسفارتهم فى هذا الشأن. وهكذا كان المسجد فى كل مكان يحتل مكانة فى قلب الجميع، ويجتمع فيه أبناء الوطن فى أى مكان.

إن المسجد دعامة خير، ورمز فلاح، ومهوى أفئدة الصالحين، فلنسر فى إظهاره بمظهر لائق به؛ لتعود به للأمة سعادتها ورقيها، والله من وراء القصد، نعم المعين والموفق إلى كل خير إن شاء الله.

إن المسجد إذا كان قد تقوقع فى الماضى بتخطيط من الاستعمار وأعوانه، فلنعمل من الآن لتقوية أنشطته، حتى تدب الحركة فيه تفاعلاً وإيجابًا، والتحامًا بكل جزئيات الحياة. والرجاء معقود الآن على الشباب خاصة، والمسلمين جميعًا بصفة عامة، واذا كنا نركز على الشباب، فذلك لأنهم أمل الأمة فى غدها المشرق، ومستقبلها الباسم، وهم أقدر من غيرهم على خلق الحركة باستعدادهم الفطرى، ثم إنه الحصن الحصين، والعلاج النافع من كافة الانحرافات لهم، وعلى جميع المسئولين أن يتجهوا إلى هذا «المسجد» والشباب.

وزارة الثقافة والإعلام

واذا كنا قد بينا ما لبعض الأجهزة من دور إيجابى فى وجود المسجد، فهناك وزارة الثقافة والإعلام، ودورها مهم جدًا وخطير؛ لأن رسالة وزارة الثقافة والإعلام إذا لم تُساند رسالة المسجد فإن الخطر جسيم، والمصيبة عظيمة؛ لأن ما يبنيه المسجد فى عام يُهْدَمُ فى مشهد من فيلم فى دقيقة؛ لذلك كان لابد لأجهزة تلك الوزارة أن تخطط برامجها وما يتفق مع رسالة المسجد.

كما أن هناك ما ينشر فى المجلات والجرائد من مناظر تتأفف منها العين ويمجها الذوق السليم. ومع ذلك نحن لا نطالب بأن تغلق السينما أبوابها، ولا يلف ورق الجرائد وتشمع مؤسساتها - لا - إننا نطالب تلك المؤسسات: إذاعة مرئية أو مسموعة أو مقروءة - أن يتخيروا الكلمة الجيدة البناءة الهادفة، وأن يبتعدوا عن الإسفاف والتميع.

هذا، وعلى القائمين بأمر المساجد أن يمسكوا دائمًا بالزمام، وأن يكونوا على مقدرة عظيمة وتَفَتُّح وقُدْرَة على الاستيعاب لتلك التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأن يضعوا نُصْبَ أعينهم صَبَّ هذه الأمور فى القالب الدينى، مع وضع العلاج الصحيح. إن المسجد يقدم النافع للناس بوعى راشد، وعندئذ سيفهمون ضرر وسائل الإعلام غير الجيدة، فيعملون على مقاطعة تلك الأجهزة التى ستضطر إلى تطوير نفسها، وتغيير مادتها بحيث تُرْضِى رغبات القُرَّاء والمستمعين الواعين المتمسكين بدينهم. إنا لانتخذ أسلوب التهجم والتباكى وسيلة وغاية بدون تقديم العلاج - لا - إن العلاج ينبع من المسجد ورسالته.

من هنا كان لابد لتلك الأجهزة أن تراجع حساباتها، وتعمل على النهوض بالقيم الأخلاقية ومحاربة الرذيلة. كذلك نرى الآن انتشار المقاهى وارتيادها بكثرة - خاصة بين المغرب والعشاء - وياحبذا أن يقضى الناس هذه الساعة فى المسجد وملحقاته، كُلٌّ يودى دوره حسب قدراته، هذا يجلس فى حلقة علم، وهذا يُعَلِّم أبناء حَيِّه، وهذا يسهم في إخراج جريدة الحائط، وهذا ينظم المكتبة... وبهذا يكون كل فرد طاقة بناءة فى هذا المرفق الحيوى، وقد تكاملت الخدمات فيه، فأصبح مركز إشعاع بكل ما ينفع الناس.

ويمكن أيضًا أن يكون مركز إسعاف، وهذا عمل نافع لأهل الحىِّ، يكون به من يعطى الحقن، أو يضمد الجروح، والطبيب المتخصص... وبه كذلك مكان لتوجيه الفتيات والأمهات لأمور الحياة، ومايجب على الواحدة منهن فى حياتها الأسرية والزوجية. ثم به مكان خاص للتدريب على بعض الحرف، مثل أنوالٍ

لصنع السجاد، أو التريكو، أو الآلة الكاتبة، وأعمال النجارة والخياطة. وبه مكان كذلك لمن يلعبون بالكرة، ويمارسون أعمال الرياضة البدنية.

إن كل شيء يمس حياة الناس لابد أن ينطلق من المسجد ومؤسساته وملحقاته التى تُبْنَى باسم الله وتشيدها يد الطهر، إن بعض الناس يتباكَوْنَ على أن النوادى الرياضية أو السينما أو المقاهى جذبت الناس إليها فانصرفوا عن المسجد؛ لأنه تقوقع على نفسه كما قلت، فإذا عادت إليه الحياة عاد إليه الناس، وأسهم الجميع فى رفع صرح الحضارة الإنسانية التى تستمد نُظُمها مِنْ شَرْعِ الله، وهَدْىِ الأنبياء.

إن الذين ينزوون ويبكون على ضياع الخُلُق نقول لهم: هذه سلبية، أما الإيجابية فهى أن نجفف دموعنا، ونخطط بأمانة لكل ما فيه نفع وخير، وكلمة «أنا مالى» لابد أن تُمْحَى من حياتنا، ويكون محلها «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». فإلى العمل الخلاق البناء فى كل اتجاه، على أن يلتحم هذا العمل ويُلصق بالمسجد؛ ليكون باسم الله، وفيه الخير والنفع إن شاء الله. ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1].

كذلك لا ننسى وجود المسجد فى الجيش والقوات المسلحة، فإن وجوده سيدعم الروح المعنوية عند الجندى، ووجوده فى كل كتيبة أمر مهم جدا. ولقد كان رسول الله ﷺ عند تَحَرُّكِه لأية غزوة من الغزوات يكون معه وزير الإعلام ومؤذنه «بلال» ـ رضى الله عنه ـ يُؤَذِّنُ له وقتَ الصلاة. وهناك كذلك صلاة الخوف فى الحرب، وأَمْرُهَا معروف فى كتب الفقه بالتفصيل.

وعلى المسلم أن يقرأ فى بيان هذا من سورة النساء: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٠٥.

سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾[1]. صدق الله العظيم.

ويؤخذ من هذا أن الصلاة ـ ومكانها المسجد ـ مطلوبة من الإنسان حتى عند الحرب ونحن نعلم أن الأرضَ مسجدٌ لكل مسلم مالم تتيقن نجاستها؛ لهذا نهيب بالمسلمين جميعًا أن يجعلوا للمسجد مرافقَ متعددة؛ ليعود إلى سيرته الأولى وجَذْبِ الناس إليه، وعندئذ يفرحُ المسلمون بنصر الله. نريد أن نبتعد عن الجدل ونتجه إلى العمل الذى فيه النفع، ولنجعل كلمة عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ أمام أعيننا: «إذا غضب الله على قوم رزقهم الجدل وأبعدهم عن العمل، وإذا رضى الله عن القوم وفقهم للعمل وأبعدهم عن الجدل»..

فاللَّهُمَّ حببنا إلى المساجد، واجعلنا من أهلها يارب العالمين.

* * *

(١) سورة النساء ـ من الآية ١٠٢.

كلمة أخيرة

نشرت جريدة أخبار اليوم بتاريخ ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ الموافق ٦ من مايو سنة ١٩٧٨م هذا الخبر فى صفحتها الأولى تحت عنوان «العرب يشترون ٣ فنادق فى نيويورك»: «ذكرت اليوم صحيفة النيويورك تايمز أن مجموعة مستثمرين من دول الشرق الأوسط قد عرضوا أن يدفعوا ٥٠ مليون دولار نقدًا لشراء ثلاثة فنادق كبيرة فى نيويورك، هؤلاء المستثمرون من السعوديين والكويتيين والإيرانيين».. هذا هو الخبر، والتعليق عليه: يا حبذا تَتِمَّةٌ له تقول: وسوف يتم تحويل صالات الرقص إلى مكان للصلاة، وتحويل الأَرفف التى وُضِعَتْ زجاجات الخمر عليها إلى مكتبة عامة، تضم بين جنباتها أمهات كتب الدين الإسلامى والتعريف به، ولأول مرة فى حياة الفندقة فى دول الغرب سَيُؤَذَّنُ للصلاة، وسوف يكون هناك مُحاضِرُون على درجة عالية من الكفاءة لشرح منهج الإسلام وإقامة صلاة الجمعة.. وهكذا.

إن من يقرأ كتاب الله يجد فيه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[1].

والصالح من أمة محمد ﷺ هو الصالح لعمارة الكون واستخراج ما فيه لخدمة الإنسانية، ثم يكون على درجة طيبة من فَهْم الإسلام وعمق العقيدة

(١) سورة الأنبياء ـ الآيتان: ١٠٥ و١٠٦.

والعمل على نشرها فى أى مكان؛ لأن هذا الشخص الصالح عليه أن يدعو إلى الله عملاً وقولاً، فمن أعطاه الله المال عليه أن ينفق من ماله فى سبيل نشر الإسلام وإبراز معالمه، هذا، ويجوز جعل الكنائس والبِيَع مساجدَ، لحديثٍ رواه أبو داود، عن عثمان بن أبى العاص، أن النبى ﷺ أمره أن يجعل مسجدَ الطائف حيث كان طواغيتهم.. ويقاس على ذلك صالات الرقص، وبهذا يكون جُند الرحمن قد غلبوا جند الشيطان، ويتحقق قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

وجند الله هم الذين آمنوا بالله ربًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا، وبالقرآن منهاجًا ودستورًا، ثم هم يبذلون المال فى سبيل الخير، وأهم سبل الخير هو إقامة المساجد، والمستشفيات، والمدارس، وكل مافيه نفع للإنسانية.

هذا، ولما كان المسجد لله سبحانه، وهو المكان الذى تتنزل فيه الرحمة، وعليه البركات، فإنه يُسَنُّ لداخلِ المسجد أمور:

١ ـ أن يدخل برجله اليمنى.

٢ ـ أن يصلى على النبى ﷺ.

٣ ـ أن يدعو الله بأى دعاء فيه خير وبركة له ولأحبابه.

٤ ـ أن يصلى ركعتين تحية المسجد. وإذا خرج كذلك يخرج برجله الشمال ويصلى على النبى ﷺ، ويدعو الله.

أخرج ابن حبان عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذَا دَخَلَ أحدكُم المسجدَ فليُسَلِّمْ عَلَى النبى ﷺ، وَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لى أبوابَ رَحْمَتِكَ. وإذا خَرَجَ فليسلم على النبى ﷺ وليقل: اللَّهُمْ اعْصِمْنِى مِنَ الشيطان الرجيم».

---

(١) سورة الصافات ـ الآية ١٧٣.

وأخرج أبو داود عن أبى حُمَيْد وأبى أُسَيْد، أن النبى ﷺ قال: إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم علي النبي ﷺ، ثم ليقل «اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل، اللهم إنى أسألكَ مِنْ فَضْلكَ».

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه فسر قول الله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[1].

قال: «هو المسجد، إذا دخلته فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». وبعد ذلك يصلى الإنسان ركعتين تحية المسجد، لكن إذا دخل المسجد الحرام فتحيته الطواف حول الكعبة. فعن أبى قتاده أن النبى ﷺ قال: «إذَا دَخَلَ أَحَدُكُم المسجدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْن قَبْلَ أن يَجْلِسَ». وكان من هدى النبى ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدئ بركعتين تحية للمسجد، ثم يسلم على القوم، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله، فإن تلك التحية حق الله تعالى، والسلام على الخلق حق لهم، وحق الله تعالى فى مثل هذا أحق بالتقديم.

ويُكْرَهُ تحريمًا رَفْعُ الصوت فى المسجد، وكذلك البيع والشراء، ونشدان الضالة، وسؤال الصدقة، وتخطى الرقاب بالصناديق لجمع أموال عند أداء خطبة الجمعة؛ لأن كل ذلك يشوش على المصلين، كما سبق أن ذكرنا.

روى ابن ماجه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ رَجُلاً ينشدُ ضَالَّةً فى المسجدِ فَلْيَقُلْ: لا رادها اللهُ إلَيْكَ، فَإنَّ المسَاجدَ لم تُبْنَ لهذا» وقد سمع عمر بن الخطاب قومًا من التُّجَّار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد، فقال: «إنَّما بُنِيَتِ المساجدُ لذِكْرِ الله، فَإذَا ذَكرتُم تِجارَتَكُم والدنيا فَاخرُجُوا إلى البَقِيع».

ولا ينافى هذا ما قلناه؛ لأن هذا مقصود به الدنيا فقط، إنما إذا روعى مصلحة المسلمين والدين والدنيا معًا فلا بأس، ويكون ما قدمناه فى غير أوقات الصلاة، وبحيث لا يتأذى أحد من المسلمين.

---

(١) سورة النور ـ من الآية ٦١.

حدث أن سعيد بن المسيب كان بالمسجد آخر الليل يتهجد، ثم دخل عمر ابن عبد العزيز، وكان حَسَنَ الصوت، فجهر بالقراءة، فلما سمعه سعيد بن المسيب قال لخادمه: اذْهَبْ إلى هذا المُصَلِّى فَقُلْ له: إمَّا أن تَخْفِضَ صَوْتَكَ وَإِمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِد»، ثم أَقْبَلَ على صلاته، فجاء الخادمُ فوجَدَ المصلى عُمَرَ ابن عبد العزيز، فرَجَعَ ولم يَقُلْ شيئًا، فلما سَلَّمَ سعيدٌ قال لخادمه: ألم أقل لك تنهى هذا المصلى عَمَّا يفعل؟ فقال: هو الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقال: اذْهَبْ إليه وقُلْ له ما أَخْبَرْتُكَ بِهِ. فذهب إليه وقال: «إن سعيدًا يقول لك: إمَّا أن تخفض صوتك، وإمَّا أن تخرج من المسجد» فَخَفَّفَ في صلاته، فلما سَلَّمَ أَخَذَ نَعْلَيْه وخَرَجَ من المسجد. هذا أدب عظيم، وهو توجبه لكل مسلم عليه أن يلتزم به.

كذلك والإنسان بالمسجد عليه أن يستقبل القبلة ويكره لمن بالمسجد إسناد ظهره إلى القبلة، بل السُّنَّة أن يستقبلها فى جلوسه، فقد رَوَى الطبرانىُّ عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن النبى ﷺ قال: «إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وإنَّ سَيِّدَ المجالِسِ قُبَالَةَ القِبْلَة. وفى حديث لابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «أَكْرَمُ المجالِسِ مَا استُقْبِلَ به القِبْلَةَ». ودخل ابن مسعود إلى المسجد فرأى أن قومًا قد أسندوا ظهورهم إلى القبلة، فقال لهم: «لا تَحُولُوا بَيْنَ المَلائِكَةِ وبَيْنَ صَلاَتِهَا».

ولا يجوز أَخْذ أى شيء من ممتلكات المسجد، فأى شيء يُهْدَى للمسجد يُصْرَفُ عليه، وما قُدِّمَ إليه يكون له، كالحصير، والشمع، والمصابيح، وإذا سقط منه أى حجر يُعَاد إليه، وإلا تُرك مكانه. أخرج أبو داود عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إن الحصَاةَ لَتُنَاشِدُ الذى يُخْرِجُهَا من المسْجِد (أى: تطلبُ منه ألاَّ يُخرجها من المسجد) وتُلح فى هذا». ويقول سعيد ابن جبير: «الحصاةُ تَسُبُّ وتَلْعَنُ مَنْ يُخرجها من المسجد». وإذا كان هذا حال الحصاة فما بالك بمن يسرق «حنفية» الوضوء، أو الرصاص الذى يكون بدورات المياه، أو الحصير الذى يُفرش؟ إنَّ كل ذلك حرام أَخْذُه من المسجد.

والإنسان ـ وهو بالمسجد ينتظر الصلاة ـ لا يشبك أصابعه، فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُم فى المسجد فلا يُشَبِّكَنَّ، فَإِنَّ التَّشْبِيكَ مِنَ الشَّيْطَانِ». وحكْمَةُ النهى عن ذلك أن التشبيك يجلب النوم، وهو مظان الحَدَث. والحسن البصرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول: «يُكْرَهُ تَعَمُّدُ الجلوسِ فى المسجدِ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ؛ لأنَّ الملائكةَ تستغفرُ لمن يجلس فى المسجد على طهارة ينتظر الصلاة». أخرجَ الإمام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزَالُ العبدُ فى صَلاَة ما دَامَ فى مُصَلاَّه ينتظرُ الصَّلاةَ، تقول الملائكة: اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللهم ارْحَمْهُ، حتى ينصرف أو يُحْدِثَ فقيل: وما يُحْدِث؟ قال يَفْسُو أو يَضْرَطُ».

هذا، ويجوز أن يكون على المسجد بَيْتٌ، أو البيت فى الدور الأول وأعلاه المسجد ـ ومَنْ أتلفَ أى شىء من المسجد لَزِمَهُ[1]، ولا يجوز لأحد أن ينتفع بأى فضاء خاص بالمسجد، وإلا دفع أُجرته. وكذلك لايجوز لأحد أن ينتفع بشىء من الكهرباء الخاصة به، ولا المياه المخصصة له، ومَنْ بَنَى بيتًا فى فضاء المسجد يُهْدَم، وكذلك جار المسجد، لا يحق له وضع أى شىء على جداره، كجذع نخلة، أو فروع شجر، ويزال فورًا إذا كان ذلك لغير صالح المسجد؛ لأنه مِلْكٌ لله، والمسلمون جميعًا فيه شركاء، يُجْرَى فى ساحته ما فيه خير للجميع.

إن المسجد لو أدى وظيفته على النحو الذى بيناه وما نهدف إليه ونرجوه فإن الأسباب التى أدت إلى عزله عن المجتمع وتقليل وظائفه فى البيئة، والتى صَرَفت الناس عنه ـ سواء كانت هذه الأسباب نابعة من داخل المجتمعات الإسلامية أو وافدة عليها من تخطيط أعداء الإسلام، نقول: إذا بدأ المسجد يسهم بإيجابية فى أداء الواجب المنوط به فإن هذه الأسباب ـ ستفقد فاعليتها وتزول زوالا مطلقًا، وعندئذ تعود للمسجد مكانته، وللمجتمع الإسلامى عزته، وتبدأ الطلائع الفاهمة الواعية فى التحرك نحو أهدافها، حاملة لكتاب الله، واعية لمسئولياتها، مدركة لغايتها، تنتشر فى ربوع الأرض، تدعو إلى كتاب الله

(١) أى لَزِمَهُ إصلاحه.

وسُنة نبيه، مجاهدة فى سبيل الحق ونشر العدل؛ لُتخرج البشرية من ظلمات الجهل وضلال الانحراف ذات اليمين أو اليسار، حتى تعتدل البشرية على الصراط المستقيم، ملتزمة بالدين القيم، مستهدية بهدى الأنبياء، إنْ تم هذا فإن البشرية تسعد فى يومها، وتُؤَمِّن مستقبلها، وتشبع البطون الجائعة، وتكسى الأجساد العارية، وتنام العيون الأَرِقَة فى ظل الحب والأُخُوَّة والحنان.

إن الأمل مرهون بالمسجد وانطلاقه لتأدية واجبه، ويومها سيكون الخير الكثير، والنعيم العظيم، والاستقرار والأمان والسلام يعم الإنسانية الحائرة التائهة فى بيداء الحياة؛ لأنها فقدت مقومات الإيمان، فإن رجعت للإيمان عَمَّهَا ذلك الخير، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1]

فإلى الذين ينشدون الخير للإنسانية، وإلى أهل الفضل من بنى الإنسان نقول: اتجهوا بأبصاركم إلى المسجد واجعلوه قبلتكم، وفى بيوتكم، وفى كل مرفق من مرافق دولتكم، ولنا فى السلف الصالح قُدوة، فقد رَوَى البخارى عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت:

«لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، ولَمْ يَمرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إلاَّ يأتينَا فيه رَسُولُ الله ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثم بَدَا لأبى بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بفناء دَارِه، فكَانَ يُصَلِّى فيه ويقرأ القرآن، فيقفُ عليه نساءُ المشركين وأَبْنَاؤُهُم يَعْجَبُونَ منْهُ، ويَنْظُرُونَ إليه. وكَانَ أبو بكر رَجُلاً بَكَّاءً لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآن، فَأَفْزَعَ ذلك أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المشْرِكِينَ».

إن مجمل القول الذى أريده: أن ينتقل المسجد وروحه إلى سائر الأماكن: إلى البيت، والمدرسة، والمصنع، والمزرعة، والنوادى الرياضية، ومراكز الشباب، والمستشفيات، والجامعات، ومَحَاطِّ القطارات، ومواقف الأتوبيس، وفى البواخر فى أعماق البحار، والوزارات، وكل مكان يتجمع فيه مسلم يقول:

(١) سورة الأعراف ـ من الآية ٩٦.

لا إلـه إلا الله، محمد رسول الله. وعلى المسلمين أن يتخلَّقُوا بأخلاق المسجد وهم ينطلقون إلى أعمالهم فى الشوارع، وعلى المكاتب، وفى الزحام، وفى المصنع، وفى كل مكان يُزيِّنُهُ المسلم بإشراق نفسه، وهدوء طبعه، وحُسْن خُلقه، وما يتحلى به من الأمانة وضبط النفس وسعة الصدر، عندئذ ستكون الدنيا جنة ينعم فيها الجميع، حتى الذين لا يدينون بالإسلام، سيجدون العدل والإنصاف والرحمة؛ لأن المسلم قُرآنٌ يمشى على الأرض، محمدىٌّ النزعة، إسلامى التربية، ودستورهم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

هذا، والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

(١) سورة النحل ـ الآية ٩٠.

خاتمة

مما سبق يتبين لنا أن المسجد هو المنطلق إلى كافة مناحى المجتمع؛ لأن الواجبات الاجتماعية امتداد للواجبات الدينية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

ومن بين جدرانه تنطلق الكملة النباءة الهادفة التى تنمى المواهب الفكرية، وتحصن العقل من الغزو الفكرى الوافد علينا من شرق الدنيا أو غربها، ويحمل بين طياته خبث الطوية وسوء الغاية، والدعوة إلى الانحلال الخُلقى، والتقليل من شأن العادات الإسلامية، وهدم الأسس التى يرتكز عليها المجتمع الناهض.

إن الأُخُوَّة بين الناس والمساواة يجب أن تسود المجتمع، والدعوة لهذا تنطلق من المسجد وتهتم بقضايا المسلمين داخل المجتمع وخارجه؛ لأن المسلم لاينفصل عن أخيه فى العقيدة، فالرسول ﷺ يقول: «مَثَلُ الْمُؤْمنينَ فى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى».

وفى حديث آخر: «مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ المسْلمينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ» وكذلك: «لا يُؤْمِنَ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» إن مناخ الإيمان الصحيح

(١) سورة التوبة ـ من الآية ٧١.

يجعل الفرد يتنسم فى هوائه روح الصدق والثبات، والأمن والسلام، والحب والإخاء والوفاء.

لهذا فإننا نشعر بثقل المسئولية، ونهيب بكل فرد أن يجعل المسجد نُصب عينيه، ويحرص على التردد ـ هو وأولاده ومَنْ يُحبُّ ـ عليه، ويَدْعُو غَيْرَهُ ليتردد على هذا المكان الفاضل معه، ولأَنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدنيا وما فيها، فَأَسْهِمْ ـ يا أخى ـ مع إخوانك فى وضع لبنة فى مسجد حتى يرتفع بناؤه، وأمسك بيدك مكنسة تبعد بها الغبار عن فرش المسجد، وَاحْرِصْ على أن يكون المسجد دائمًا نظيفًا، ثم التحمْ مع رُوَّاده فى مَوَدَّةٍ وأُخُوَّةٍ؛ لتكون لبنة طيبة فى صرح هذا البناء الشامخ، وتندرج تحت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1].

وحَاوِلْ أن يكون المسجد وجهتك دائمًا، فقد أخرج الشيخان عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فى الصَّلاَةِ أَبْعَدُهُم إِلَيْهَا مَمْشًى فَأَبْعَدُهُم» والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذى يصليها ثم ينام. ولما كانت صلاة الجماعة من خصائص الأمة المحمدية، وقد شرعها الله لما فيها من التعارف والتآلف وارتباط القلوب وتعود الامتثال والصبر والشجاعة وحُسْن النظام كما

---

(١) سورة فصّلت ـ الآيات من ٣٠ ـ ٣٥.

سبق توضيحه، فإنه لا صَلاَةَ لجارِ المسجد، إلاَّ فى المسجد، ولقد تَوَعَّدَ رسولُ الله ﷺ الذين لا يُصَلُّونَ فى المسجد ولا يشهدون الجماعة بتحريق بيوتهم وإظهار أمرهم للناس؛ لأنهم منافقون.

أخرج أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصَّلاة فَتُقَامَ، ثم آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّى بالنَّاسِ، ثم أَنْطَلِقَ مَعِىَ برجَالٍ مَعَهُم حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إلى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ».

ولما كانت صلاة الفجر والعشاء هما أثقل شىء على المنافق، فقد روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ على المنافقين صَلاَةُ العِشَاء وصلاة الفَجْر، ولو يَعْلَمُونَ ما فيهما لأتَوْهُمَا ولو حَبْواً».

كما أن النبى ﷺ لم يرخص للضرير فى التخلف عن المسجد لحضور الجماعة. أخرج أبو داود عن ابن أم مكتوم أنه قال: «يا رَسُولَ الله، إنِّى رَجُلٌ ضَرِيرُ البَصَرِ، شاسع[1] الدار، ولى قائد لا يلائمنى، فهل لى رخصة أن أصلى فى بيتى»؟ قال: «هل تسمعُ النداء؟» قال: نعم. قال: «لا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً»، قال ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه -: حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنَادَى بِهِنَّ، فإنهن مِنْ سُنَن الهدى، وإن الله عز وجل شرع لنبيه ﷺ سنن الهدى، ولقد رأيتُنَا وما يتخلف عنها إلا منافق بَيِّنُ النفاق، ولقد رأيتنا وإن الرجل ليهادى بين الرجلين حتى يُقَامَ فى الصف، ومامنكم من أحد إلا وله مسجد فى بيته، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنن نبيكم، ولو تركتم سنن نبيكم كفرتم.

وحضور النساء المساجد لشهود الجماعة جائز إذا خرجن متسترات غير متبرجات ولا متطيبات ولا متحليات بما يثير الفتنة. وللنساء أن يقمن بأداء الصلاة جماعة وحدهن فى مكان ليس فيه رجال، ففى مسند الإمام الشافعى أن حجيزة بنت حصين قالت: أَمَّتْنَا أُمُّ سَلَمَةَ فى صلاةِ العصر، فَقامَتْ بَيْنَنَا.

---

(١) شاسع: بعيد.

إن الضوضاء التى عمت المجتمع اليوم تحول دون وصول صوت المؤذن إلى الناس؛ لذلك نرى أن يزود المسجد بمكبر للصوت لإعلام الناس بدخول الوقت المعين لأداء الصلاة. وكذلك تليفون للرد على الاستفسارات الدينية والفتاوى وما شاكل ذلك. وقد أشرنا إلى أن يكون بالمسجد مجلة حائط ويكون بجوارها صندوق لتلقى الاقتراحات ، وإننا نرجو للمسجد أن يقوم بأداء الخدمات المتنوعة للمجتمع المعاصر؛ فإنه لابد لكافة الأجهزة أن تتعاون بجد واجتهاد فى إبراز رسالة المسجد، إن يد الله مع الجماعة التى تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان، والمسجد يُسهم فى تطهير المجتمع من البدع والخرافات، ومحاربة الاستغلال والاحتكار، ويبين آثار المخدرات وأضرار الشائعات، وينمى العواطف الطيبة، ويبرز العناصر الصالحة، ويدعم الأخلاق الفاضلة، ويوجه إلى حماية الثروة الزراعية وحماية الإنتاج.

فإلى المسلمين فى مشارق الدنيا ومغاربها، وإلى الغيورين على دين الله، وإلى الذين يؤرقهم مستقبل الشباب ويريدون لهم الحماية من الانحراف، ويأملون لهم المستقبل المشرق الباسم، وإلى من يريد للإنسانية أن تسعد وأن تتبوأ مكان الريادة، نقول لهؤلاء جميعًا: اجعلوا المسجد أمامكم، ووجهوا إليه أنظاركم، وتعاونوا مع العاملين فيه للنهوض به، والانطلاق برسالته، حتى يعم الخير الناسَ جميعًا، وتنتشر الرحمة فى صفوف المسلمين، ويكون التعاون هو الركيزة فى مجتمعنا الراشد.

تقبل الله منا ومنكم وهدانا جميعا لكل خير، وجعلنا من أهل المساجد المعمرين لها القائمين بصدق على رعايتها.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

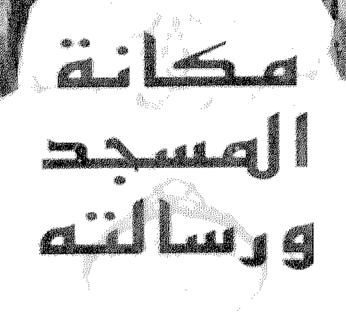
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) سورة الحشر ـ من الآية: ١٠.

الفهرس

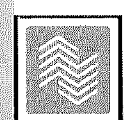




ما أحوجنا اليوم إلى هذا الكتاب الذى يدلنا على معرفة رسالة المسجد السامية تلك الرسالة التى تعد الشباب والناشئين لتربية دينية وأخلاقية متكاملة ، كما تعدهم لتحمل أعباء الدعوة الإسلامية فى المستقبل والانطلاق بها فى شتى بقاع الأرض كما فعل أسلافنا فى الماضى . .

إن أول عمل قام به الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هو تأسيس «المسجد» ، ومنه كان الانطلاق ففيه ارتفع صوت الحق ، ومنه كان الانطلاق ، وعلى يد أئمته كان إخراج البشرية من ظلمات الجهل وضلال الانحراف إلى الالتزام بهدى الأنبياء والسير بالمسلمين وسائر أفراد البشر على الصراط المستقيم ، ومن ثم صار المسجد مصدر هداية ونور، حافظ على رسالة الإسلام وجوهره ، ودفع بالحضارة الإسلامية إلى سبيل الرقى والتقدم على مسار التاريخ .

الناشــر



مكتبة الدار العربية للكتاب

٢٤ شارع الدكتور حسن إبراهيم متفرع من مكرم عبيد .

تليفون وفاكس : ٢٧٤١٧٢٦ - ص . ب : ٧٥٨٤ الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تصميم الغلاف : محمد طنطاوى